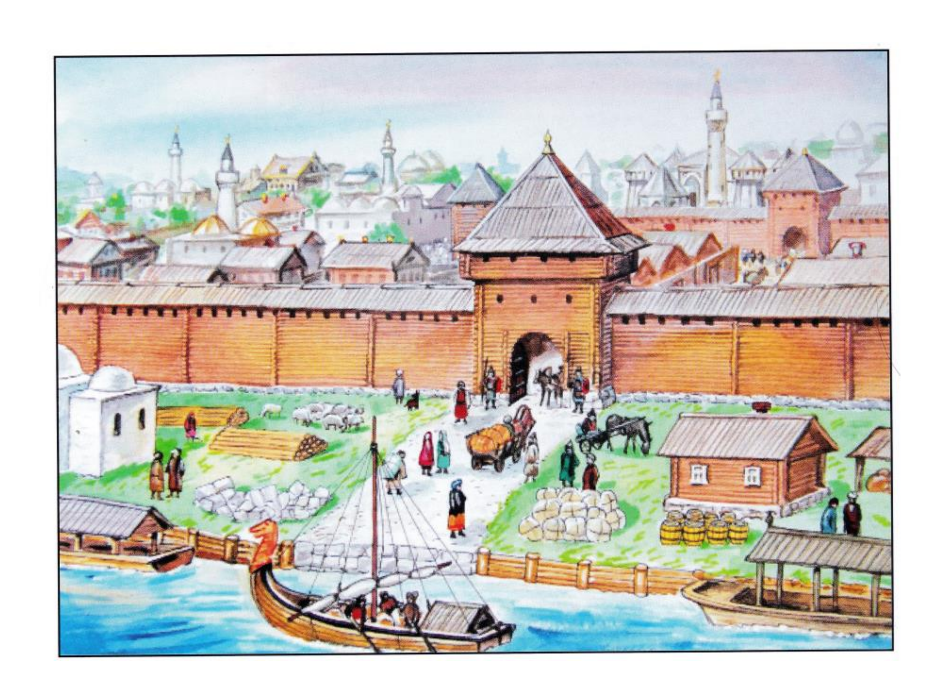
"بيت الجغرافيا"

مختارات مترجمة

(٢)

الإسلام في تترستان



تأليف: رفيق محمدشين

ترجمة : وائل فهيم

مراجعة وتحرير: عاطف معتمد



هذه ترجمة كتاب

Ислам в Татарстане

المؤلف

Мухаметшин Р.М

دار النشر

Яналиф

مكان النشر وتاريخه:

Казань 2009

ناشر الترجمة العربية: بيت الجغرافيا ٢٠١٧



مقدمة الترجمة

يطيب لي ان أقدم هذا البحث المهم في تاريخ وجغرافية وثقافة الإسلام في جمهورية تترستان (إحدى جمهوريات الاتحاد الفيدرالي الروسي). سيجد القارئ هنا عرضا تاريخيا مبسطا لرحلة الإسلام مع روسيا عبر بوابة نهر الفولجا، ذلك الإقليم الاستراتيجي المميز الواقع على التخوم الجغرافية بين سيبيريا في الشرق وأوربا الشرقية في الغرب.

صدر هذا الكتاب عن الجامعة الإسلامية الروسية ومقرها مدينة "قازان" عاصمة جمهورية تترستان، وهي جامعة حكومية ذات سمعة مرموقة، زارها رئيس الوزراء الروسي دميتري ميدفيدف في ٢٠٠٧، وما تزال تمثل نافذة مهمة للإسلام الحضاري.

خلال زيارتي لهذه الجامعة في صيف ٢٠١٦ كان هذا البحث قد ترجم إلى اللغتين الإنجليزية والعربية. وحين تصفحت الترجمة العربية وجدتها بعيدة عن الصواب وعامرة بالأخطاء، واقترحت على السيد رفيق محمدشين، رئيس الجامعة، أن أتولى نقل الترجمة للقارئ العربية. وقد تفضل مشكورا بالموافقة.

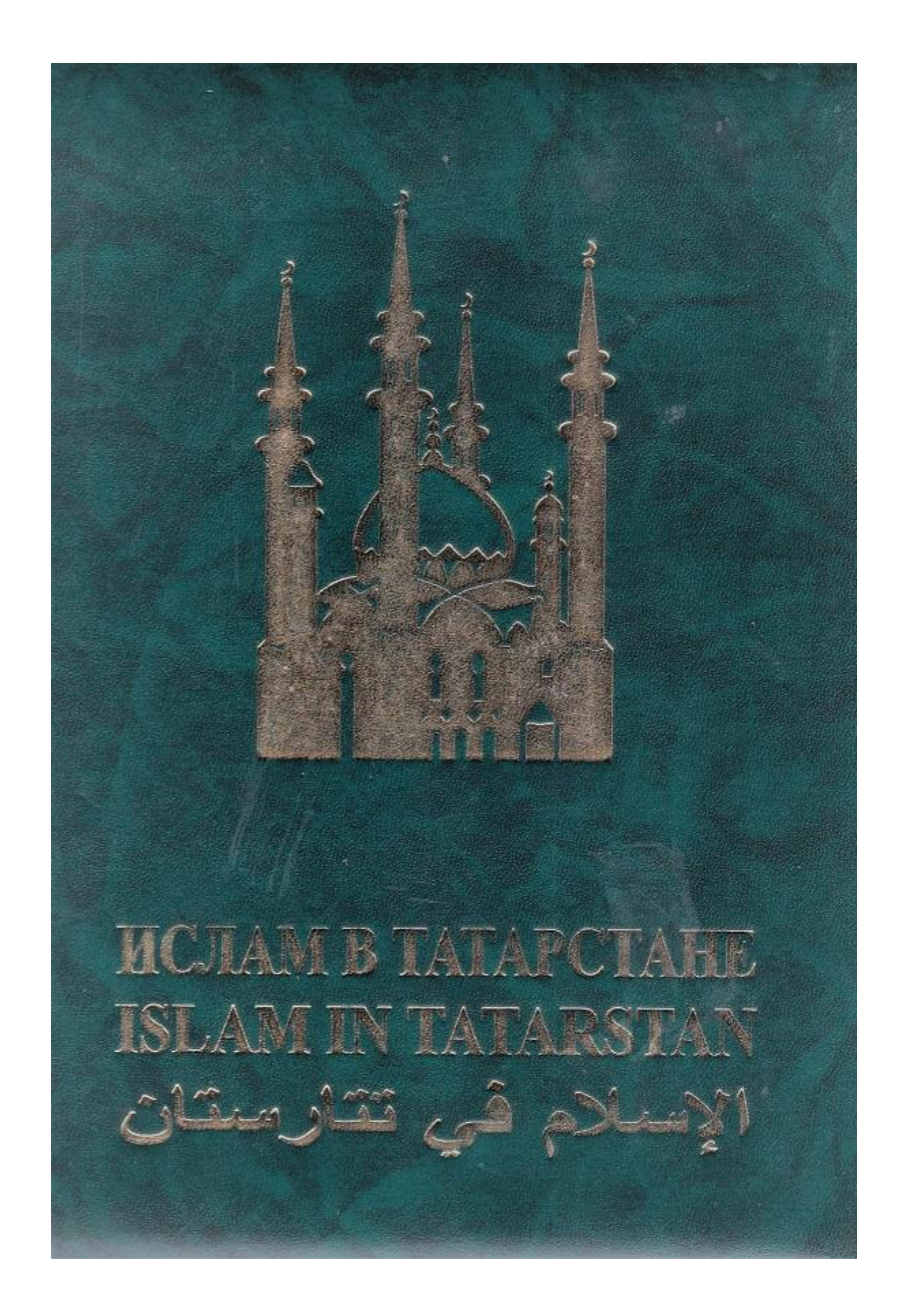
واستعنت بالزميل العزيز د. وائل فهيم (مدرس اللغة الروسية وآدابها في كلية الألسن بجامعة عين شمس) لإعادة الترجمة من نقطة البداية، وقد أدى مشكورا عمله على أفضل وجه. ثم جاء دوري فأديت واجبي نحو الترجمة مراجعة وتحريرا.

ويسعد "بيت الجغرافيا" أن ينشر هذه الترجمة للمهتمين بالشأن الروسي والإسلام (حضارة وتاريخا وعلاقات تفاهم وتعايش). ويحدوني أمل في أن تسد هذه الترجمة ثغرة في ثغرات كثيرة في العلاقات الثقافية والحضارية بين العالم العربي والإسلامي من جانب وروسيا من جانب آخر.

والله نسأل القبول

عاطف معتمد عبد الحميد

القاهرة – نوفمبر ٢٠١٧



غلاف الكتاب في نسخته الأصلية

المبحث الأول

الإسلام في تترستان

الإسلام في الفولجا

ترتبط الصفحات الأولى من تاريخ الإسلام في منطقة الفولجا بخانة[1] الخزر، تلك الدولة القوية التي تألفت من القبائل التوركية[2] فيما بين القرنين السابع والتاسع الميلاديين. قامت هذه الدولة على أنقاض الخانة التوركية التي كانت قد وحدت عشرات الشعوب الناطقة بالتركية وغير التركية في منطقة شاسعة تمتد من جبال ألطاي إلى جبال الكاربات. كانت أراضي دولة الخزر في البداية تضم سفوح جبال شمال القوقاز والسهول الشاسعة بين ساحل بحر قزوين والفولجا الأدنى في الشرق وخط نهر الدون في الغرب، ولكن تدريجيا خضعت جميع مناطق الفولجا الوسطى والدنيا لنفوذ دولة الخزر، وفي الشمال امتد نفوذها حتى نهر أكا، وفي الغرب وفي سنوات أوج قوة الإمبراطورية وصلت لنهر دنيبر، كما كانت تنتمي لها ولوقت طويل مناطق بحر آزوف وجزء كبير من شبه جزيرة القرم وضفتي مضيق كيرتش.

وكان الألان[3] والشركس وقبائل أخرى في شمال القوقاز يُعطوا الجزية للخزر، ودفعت بلغاريا الفولجية وروسيا كييف[4] الجزية أيضا في أوقات مختلفة. تأسست

---

[1] يقصد بالخانة الدولة أو الإقليم الذي يحكمه الخاقان، وهو لقب الحاكم أو الملك عند الترك والتتر وأحيانا يسمى اختصارا "الخان". (هذا الهامش وكل ما سيليه من هوامش من إعداد المترجم والمراجع)

[2] سنستخدم هنا مفردة التوركية للدلالة على الشعوب والقبائل التي كانت تعيش في وسط آسيا بدلا من كلمة "التركية" التي قد يفهم منها دولة تركيا الحالية، والتي هي في الواقع جزء صغير من الامتداد الهائل المساحة للشعوب "التوركية" في آسيا.

[3] قبائل من البدو الرُحل يتحدثون اللغات الإيرانية.

[4] دولة في القرون الوسطى في أوروبا الشرقية نشأت في القرن التاسع إثر اندماج عدد من القبائل السلافية الشرقية والفينو أوغرية تحت حكم أمراء أسرة روريك.

عاصمة الخزر الأولى في مدينة بيلينجير[5] ثم سمندر[6]، وتقعان إلى الجنوب من نهر تيريك. وفي منتصف القرن الثامن انتقلت العاصمة إلى مدينة إتيل على نهر الفولجا، التي كانت تقع إلى الشمال قليلا من مدينة أستراخان الحالية .

شكَّل الخزر والبلغار والبورتاس[7] والمجريون المكون الرئيس الناطق بالتركية لتلك الدولة متعددة الأعراق. وكانت هناك مجموعة ليست كبيرة عددا، ولكن ذات تأثير ملحوظ وهم اليهود، الذين تم طردهم في بداية القرن الثامن من بيزنطة، ووجدوا ملجئا سياسيا لهم في دولة الخانة. وكان لدى ممثلي مختلف الديانات إمكانية تحقيق مسائلهم الدينية، حيث كتب المؤرخ العربي أبو الحسن المسعودي "بين كل سبعة قضاة كان هناك قاضيان مسلمان يحكمان بالشريعة والقرآن، وقاضيان يهوديان يحكمان بالتوراة، وقاضيان مسيحيان يحكمان بالشريعة المسيحية، وقاضي من السلاف[8] يمثل الروس والوثنيين الآخرين، ويحكم إما بالعادات الوثنية أو يتشاور مع القضاة".

بدأ انتشار الإسلام في بلاد الخزر في القرن السابع، وذلك بفضل الدعاة والتجار العرب. ومع ذلك، ظل الإسلام لفترة طويلة هنا ديناً للطبقات الدنيا والتجار العرب والخوارزميين، ونتيجة للعديد من الحروب بين العرب والخزر في النصف الثاني من القرن السابع وبداية القرن الثامن، ثم بفضل الحملة الناجحة للقائد العربي مروان بن محمد، اعتنق الخاقان الإسلام، الأمر الذي عجل بانتشار دين المنتصرين في مجتمع الخزر. وكان العامل الإيجابي الثاني لتعزيز الإسلام في دولة الخانة هو انتقال عدد كبير من خوارزميّ

---

[5] في داغستان حاليا.

[6] في داغستان حاليا في الجزء المطل على بحر قزوين.

[7] اتحاد قبلي كان يعيش على الضفة اليمنى لنهر الفولجا الأوسط.

[8] السلاف Slav هم شعوب في شرق أوروبا بين بحر البلطيق والبحر الأسود

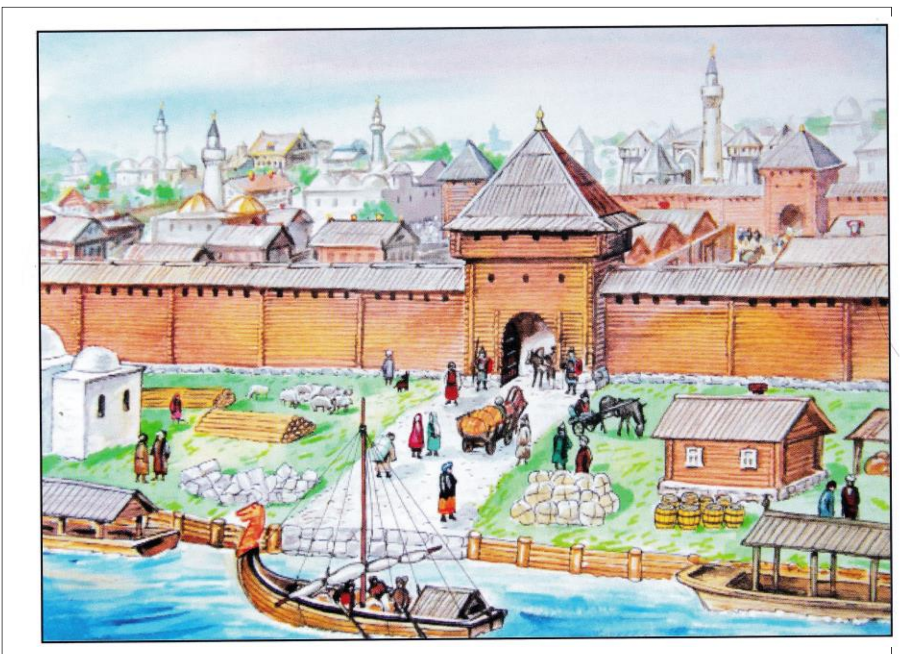
وسط آسيا للعيش في مدنها، وبنوا في عاصمة الإمبراطورية مساجد ومدارس دينية. وذكر المسعودي أن منارة المسجد الجامع تجاوزت علوًا قصر الخاقان القريب منه.



أوروبا الشرقية فيما بين القرنين السادس والثامن

في القرن العاشر أصبح الإسلام جزءًا لا يتجزأ من النسيج الديني لدولة الخزر، التي ظلت فيها السلطة في أيدي أتباع الديانة اليهودية. ومعظم من زار دولة الخزر في ذلك الوقت أو كتب عنها وجدها بلدا تنتشر به علامات الإسلام في كل مكان. كتب أبو إسحاق الإصطخري الجغرافي البارز يقول: "وفي مدينة إتيل أكثر من ثمانية آلاف مسلم، وثلاثين

مسجدا ... الملك عندهم يهودي، وبجانبه أربعة آلاف شخص. اليهود هم النسبة الأقل من السكان، والأغلبية من المسلمين والمسيحيين، وهناك القليل من الوثنيين".



مدينة بلغار على نهر إتيل (الفولجا)

بريشة الفنان: إلدوس عظيموف

في منتصف القرن العاشر فقد الخزر السيطرة على روسيا كييف[9] وبلغاريا الفولجية[10] وخسروا ساحل مضيق كيرتش. وأدت مقاومة محاربي البشناق[11] القادمين

---

[9] إمارة في شرق أوروبا نشأت في القرن التاسع من اتحاد قبائل سلافية شرقية وفينو - أوغرية تحت قيادة أمراء أسرة روريك.

[10] دولة تاريخية في منطقة نهر الفولجا الأوسط وحوض نهر كاما.

[11] اتحاد قبائل بدوية تشكل غالبا في القرنين الثامن والتاسع وكان سكانه يتحدثون اللغة البجناكية (إحدى اللغات التركية).

من أعماق آسيا، كما أدت المواجهات مع روسيا الكييفية - التي كانت في أوج قوتها - إلى استنزاف قوة تلك الإمبراطورية التي سرعان ما انهارت.

التطور بين القرنين الثامن و الثالث عشر

بحلول منتصف القرن السابع وهنت قوة خاقانات التورك، ونشأت دولة بلغاريا العظمى في سهوب البحر الأسود. في عام ٦٠٣ م شكلت القبائل البلغارية، التي كانت تعيش في سهوب كوبان والبحر الأسود، اتحادا سياسيا عرقيا خاصا بهم. ولبعض الوقت كانت تابعة لدولة خانة الأفار[12]، ولكن في عام ٦٣٥ م وصل إلى السلطة في البلغار الحاكم أورجان[13] وابن أخيه كوربات، الذي نشأ في بلاط الإمبراطور البيزنطي، ويبدو أنه كان قد تم تعميده في بيزنطة عام ٦١٩ م، وبعد أن أسقط البلغار دولة خانة الأفار، قاموا بتشكيل اتحاد للقبائل في السهوب الشرقية للبحر الأسود، ذلك الاتحاد الذي دخل التاريخ تحت مسمى "بلغاريا العظمى".

يُعتقد عادة أن البلغار الأوائل كانوا وثنيين عند قدومهم لمنطقة الفولجا والأورال، وكانت العقيدة الأساسية هي التنجرية[14] التركية. ويعد تقديس الشمس والقمر والرعد والأشجار السامقة من السمات المميزة لتلك العبادة التي ترى في "التنجر" سيدا للعالم العلوي. واتسم الوضع الديني في المنطقة في تلك الفترة بالتعقيد.

---

[12] دولة نشأت عام ٥٦٢ واستمرت حتى عام ٨٢٣ وكانت تشغل في فترة ازدهارها الأراضي التي تمثلها حاليا المجر والنمسا وسلوفاكيا وكرواتيا ورومانيا وصربيا وبولندا وأوكرانيا ومقدونيا وروسيا البيضاء وأجزاء من ليتوانيا وسويسرا.

[13] حاكم بلغاريا قام بتوحيد القبائل البلغارية ويسمى أورجان أو أورخان.

[14] ديانة ظهرت قبل الإسلام والبوذية وكان يعتنقها البدو الأتراك والمنغوليين فى سهوب أوراسيا، وفيها يتم تقديس السماء.

بعد تدمير بلغاريا العظمى أضحى الأبناء الخمس لكوربات على رأس قبائلهم في مناطق مختلفة هي: أراضي نهر الدانوب الأدنى، وبانونيا[15]، وأراضي نهر الفولجا الأوسط، وأراضي نهر الدون وشمال القوقاز. انتقلت القبائل البلغارية للعيش في منطقة الفولجا، ووجدت نفسها محاطة بسكان ترك وأوغور.

أثناء بناء الدولة برزت قوة اتحاد القبائل البلغارية بقيادة ألموش[16]. وبإنشاء الدولة البلغارية في المنطقة الوسطى من حوض الفولجا أصبح الوضع الديني بالغ التعقيد، وصارت الثقافة الروحية للقبائل البلغارية/التوركية ذات طابع مختلط. تحسنت العلاقات بالدول الإسلامية مع بداية تأسيس العلاقات التجارية والاقتصادية المنتظمة مع دول الشرق بنهاية القرن السابع، وكذلك ظهور الطريق التجاري الفولجا/البلطيق. يعود ظهور الدعاة الأوائل والمرحلة الأولية من معرفة الإسلام على الأرجح إلى القرن الثامن.

يرتبط انتشار الإسلام بين البلغار بتوحيد قبائل مختلفة تزعمتها القبيلة البلغارية بزعامة شيلكي وخاصة أبنه ألموش، وكان الدافع السياسي الأكثر أهمية لذلك هو الرغبة في تحقيق الاستقلال عن دولة الخزر. كان ألموش وغيره من قادة القبائل التركية الأوغرية في منطقة الفولجا والأورال تابعين لخاقان الخزر، ويدفعون له الجزية في شكل فراء، وكان ابن ألموش رهينة في عاصمة خانة الخزر إتيل.

وهنا يُثار تساؤل، لماذا من بين جميع أديان العالم انتشر الإسلام في منطقة الفولجا؟ يبدو أن لم المسيحية تجذب البلغار بشكل كاف، حيث كانت بيزنطة - الدولة المسيحية القريبة آنذاك - في تحالف مع الخزر وليس لديها أي تأثير فعال على منطقة

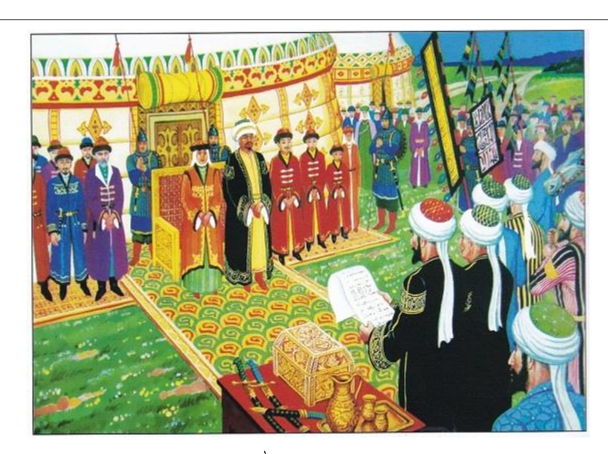
---

[15] إقليم في وسط أوروبا في الأراضي التي تمثلها حاليا المجر وشرق النمسا وجنوب غرب سلوفاكيا وشمال سلوفينيا وشمال كرواتيا وشمال شرق صربيا وشمال البوسنة والهرسك.

[16] خاقان بلغاريا الفولجية وابن الخاقان شيلكي، واسمه الإسلامي: جعفر ابن عبدالله.

الفولجا. ومن ناحية أخرى لعبت العلاقات التجارية والاقتصادية المتنامية بين منطقة الفولجا ودول آسيا الوسطى – خوارزم ودولة السامان[17] – دورا خاصا في اختيار الإسلام ديانة. وكان التجار المسلمون يحصلون على السلع الشمالية متجاوزين دولة الخزر بفضل الطريق التجاري المباشر المؤدي إلى حوض الفولجا الأوسط.

وهكذا، فإن الإسلام في منطقة الفولجا جاء من آسيا الوسطى وبخارى، والتاريخ الدقيق لاعتناق ألموش للإسلام غير معروف، ولكن يمكن أن يُعزى إلى العقد الأول من القرن العاشر. يقول الرحالة العربي الشهير بن رُسته[18] التي ترجع كتاباته لأعوام ٩٠٣ - ٩١٣ م: " يدين ملك البلغار بالإسلام، ويدين معظمهم (أي البلغار) بالإسلام، وفي القرى توجد مدارسهم ومساجدهم بمؤذنيها وأئمتها".



سفير الخليفة العباسي المقتدر بالله في حضرة ملك البلغار.

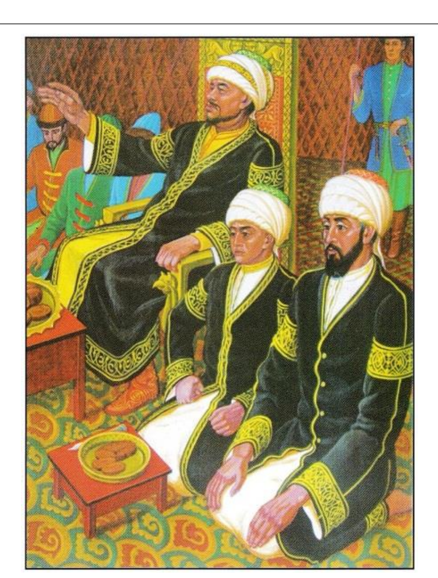
من أعمال الفنان روشان شمس الدينوف

---

[17] دولة في خراسان وما وراء النهر في الفترة من عام ٨١٩ حتى عام ٩٩٩.

[18] أبو علي أحمد بن عمر بن رسته، جغرافي فارسي عاش في أصفهان.

كان الحدث الأهم الذي شهد التأكيد على الإسلام كديانة في بلغاريا هو تبادل السفارات بين ألموش والخليفة العباسي المقتدر بالله في بغداد. ولعبت السفارة التي أرسلها الخليفة العباسي بقيادة بن فضلان دورا حاسما في الاعتراف الدبلوماسي ببلغاريا الفولجية كبلد مسلم، وكذلك أعطت دفعة قوية لانتشار الإسلام بين البلغار وفتحت للعالم المتحضر بلدا ضخما، ووسعت حدود العالم الإسلامي حتى حوض نهر الفولجا الأوسط. منذ ذلك الوقت أخذ الدبلوماسيون والمؤرخون ينظرون باهتمام للعملية السياسية في أوروبا الشرقية الصاخبة، حيث ظهرت دولة إسلامية في أقصى الشمال، وهي الحليف الوحيد والطبيعي لأي بلد شرقي له مصالح في منطقة الفولجا، كما أنها شريك تجاري يمكن الاعتماد عليه لجميع تجار بيع السلع الشمالية.



حفل استقبال في بلاط البلغار عند ألموش خان، ويبدو في الصورة رسول الخليفة العباسي سوسن الرسي وأمين السفارة جعفر بن فضلان.
بريشة الفنان: روشان شمس الدينوف

حاول البلغار نشر الإسلام في إمارة "روس". في عام ٩٨٥ م وبعد حملة الأمير الروسي فلاديمير الأول على بلغاريا تم عقد معاهدة سلام. ووردت في المصدر التاريخي

المعروف باسم "سير السنوات الماضية[19]" حكاية اختيار العقيدة عام ٩٨٦ م، عندما حاول البلغار حث فلاديمير على اعتناق الإسلام.

مع اعتناق البلغار للإسلام أخذ التعليم الشرقي ومصادره المعرفية في الانتشار، وفي بداية القرن العاشر انتشرت المساجد والمدارس الدينية في المدن والقرى البلغارية، وعمل بها علماء ورجال دين كبار. كان البلغار بعد اعتناقهم الإسلام في شيء من العزلة. لكن، مع ذلك، وكما كتب العالم الموسوعي البيروني "رغم بعد البلغار عن الدول الأصلية للإسلام، فلم تكن تعوزهم معلومات عن الخلافة والخلفاء".

في القرن الحادي عشر ألّف العالم الموسوعي البلغاري الشهير "حاج أحمد البلغاري" عدة كتب أهمها: "الشامل" و"المقاصد النافعة" و"الطريقة البلغارية". كما تنتمي أعمال الفيلسوف والمؤرخ حامد بن إدريس البلغاري إلى النصف الأول من القرن الحادي عشر وبداية القرن الثاني عشر. وفي النصف الأول من القرن الثاني عشر وضع يعقوب بن نعمان البلغاري مؤلفه الذي يحمل عنوان "تاريخ بلغاريا". كان يعقوب البلغاري معاصرا لرجل الدين البارز في مدينة سوفار[20] سليمان بن داود السكسنوفاري، مؤلف كتاب "نور الأضواء - حقيقة الأسرار". وبالمثل، عاش وعمل في النصف الأول من القرن الرابع عشر القانوني البارز برهان الدين إبراهيم الحنفي، مؤلف كتاب "أصول المناقشات".

في نهاية القرن الحادي عشر ومطلع القرن الثاني عشر كان حاج البلغاري والأخوان تاج الدين وحسن ابن يونس مشهورين بأعمالهم في مجال الصيدلة، وتمتعوا

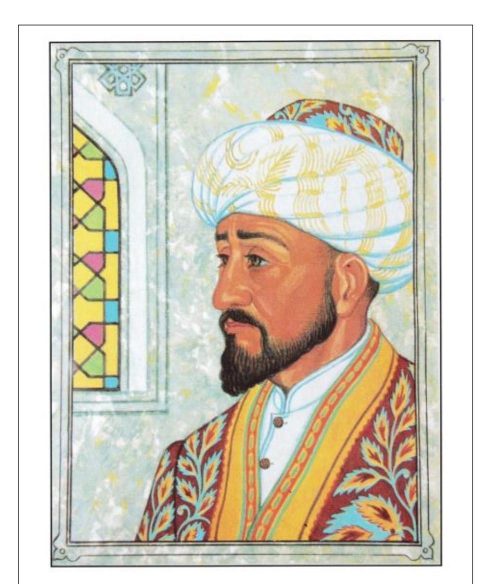
---

[19] سجلات تاريخية تنتمي لأوائل القرن الثاني عشر ودوُنت في كييف ولها العديد من الإصدارات ببعض الاختلافات.

[20] مدينة في بلغاريا الفولجية تأسست قبيل القرن التاسع وتم تدميرها عام ١٢٣٦ على يد الغزو المغولي.

بشعبية واسعة بين الناس. اشتهر تاج الدين بكتابيه "أفضل علاج للتسمم" و"إمكانات الأعشاب العلاجية".

في بداية القرن الثالث عشر كُتبت قصيدة "قصة يوسف"، وهي واحدة من أروع أعمال الأدب التركي- التتري للشاعر "قول غالي". وهذه القصيدة المستندة إلى قصة قرآنية تشهد على الإمكانات الشعرية الكبيرة للشعوب التوركية في منطقة الفولجا.



الشاعر "قول غالي"، القرن ١٨.
بريشة الفنان: روشان شمس الدينوف

في نهاية القرن التاسع تغلغل الإسلام في الثقافة الروحية للمجتمع، مغيراً تقاليدها التركية ودافعا العبادات الوثنية إلى دائرة الخرافات. وساهم ازدهار الدولة ونمو المدن وترسخ ثقافة روحية ومادية موحدة ذات طابع إسلامي على كامل الأراضي في البلاد في تشكيل شعب بلغاري له تميز عرقي وسياسية موحدة في القرون الوسطى، وكان أساسهم الأيديولوجي هو الفكر الإسلامي.

الإسلام في القبيلة الذهبية[21]

في فترة تشكيل الدولة الجديدة – إمبراطورية جنكيز خان – كانت المعتقدات الشامانية[22] والمسيحية منتشرة بصورة واسعة. ونتيجة لالتقاء الإسلام مع مجموعة

[21] القبيلة الذهبية دولة نشأت في أوراسيا في الفترة ١٢٢٤ – ١٤٨٣، وكانت ضمن الإمبراطورية المغولية حتى عام ١٢٦٦ ثم استقلت عنها بشكل كامل في عهد مينج تيمور.

متنوعة من الأديان والمعتقدات في القبيلة الذهبية نشأ وضع ديني أدى إلى خصوصية انتشار الإسلام، الذي لم يكن مطلقا الدين السائد في أربعينيات وخمسينيات القرن الثالث عشر.

في النصف الأول من القرن الثالث عشر انتهج خاقانات المغول سياسة متسامحة مع الأديان المحلية، ولم يحاولوا فرض معتقداتهم – الشامانية – على الشعوب المهزومة. كان جنكيز خان ونسله القريب، يساوون بين ممثلي الكنائس المختلفة، ويجعلونهم على مسافة واحدة منهم. وكان هذا نوعا من "التكتيك الديني" المتميز لسلالة جنكيز خان الأوائل. فعلى سبيل المثال، لم يعتنق باتو خان[23] (١٢٤٢-١٢٥٦ م) أي دين.

لم يستمر هذا الوضع طويلا، ففي نهاية فترة حكم باتو خان وقع صراع شرس للسيطرة على العرش، فانقسموا إلى مجموعتين: الأولى كانت من الجوتشيين[24] الذين صاروا نساطرة[25] (مثل باراكتشين زوجة باتو خان وابنهما سارتاك) ومجموعة أخرى من طبقة النبلاء برئاسة بِركة خان ممن اعتنقوا الإسلام.

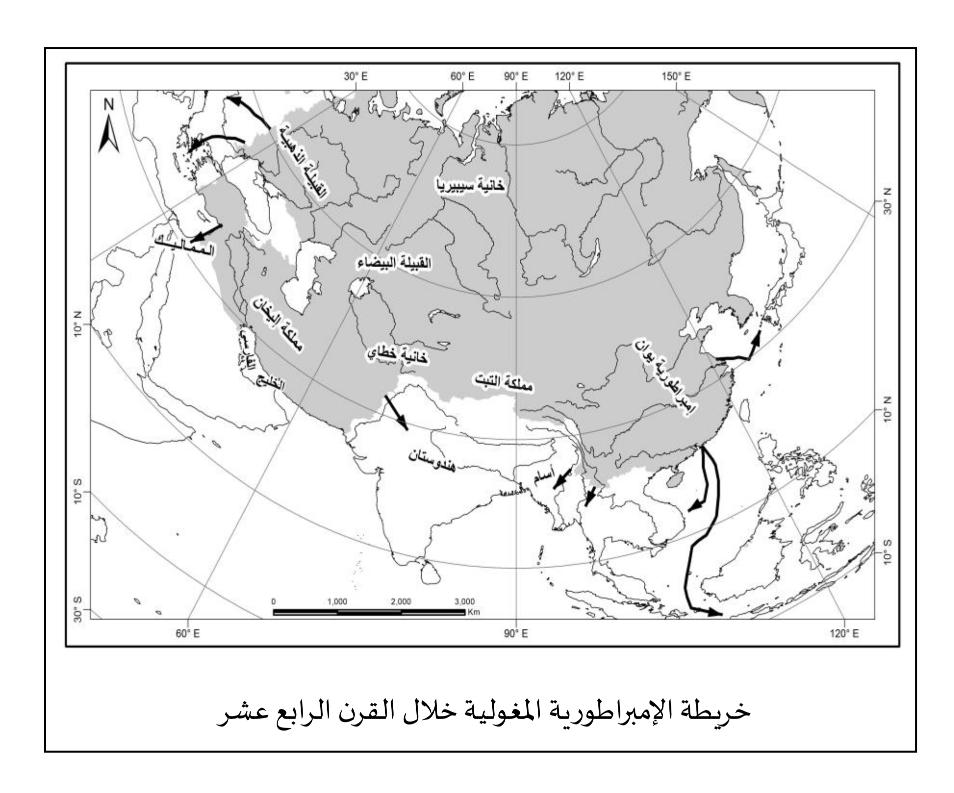
---

[22] ديانة تقدس عناصر الطبيعة وهي من الأشكال المبكرة للدين، التي تعتمد على الإيمان بأن "الشامان" هو رب علوي يمكنه في حالة التحول التواصل مع الأرواح، وترتبط الشامانية بالسحر والروحانية والطوطمية.

[23] حفيد جنكيز خان، وأصبح خاقان القبيلة الذهبية بعد وفاة والده جوتشي خان عام ١٢٢٧، وفي نفس العام وبعد وفاة جده أصبح الوريث الأكبر في الجيل الثاني من سلالة جنكيز خان.

[24] فرع من نسل أسرة جنكيز خان ويعود لابنه الأكبر جوتشي خان.

[25] النسطورية مذهب مسيحي نسب إلى نسطور بطريرك القسطنطينية (٤٢٨-٤٣١). اعتبره مجلس أفسس هرطقة عام ٤٣١.



خريطة الإمبراطورية المغولية خلال القرن الرابع عشر

بعد صراع قصير انتصر أنصار الخاقان بِركة خان (١٢٥٧-١٢٦٦ م)، وأصبح بِركة خان أول خاقان من القبيلة الذهبية يعتنق الإسلام. كان بِركة خان قد زار علماء مسلمين في بخارى، وتحدث معهم، وهناك اعتنق الإسلام على يد الشيخ الصوفي سيف الدين الباخرزي.

وفي الوقت نفسه لا يجب المبالغة في تقدير مدى انتشار الإسلام بين سكان دولة القبيلة الذهبية، فلم تحدث أسلمة شاملة للسكان. وفي الحياة العامة استمرت التقاليد القديمة. لكن انتشار الإسلام لم يكن ليوقفه شيء ولا حتى عودة النساطرة والوثنيين إلى السلطة (مينج تيمور، تالبوجا، تودامينج، توكتا).

بدأ الإسلام ينتشر بصورة أوسع في سهول ومدن القبيلة الذهبية من نهاية القرن الثالث عشر. وفي بداية القرن الرابع عشر زاد نفوذ الجالية المسلمة في الإمبراطورية،

بحيث مكّنت أحد أبنائها وهو "أوزبك خان[26]" (١٣١٢-١٣٤٢ م) من الوصول للعرش. خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر تشكلت بشكل تدريجي في القبيلة الذهبية فئة من رجال الدين الإسلامي ينتسبون إلى أحفاد النبي محمد، وعرفوا باسم "السادة"[27].



قازان

١-قناة مائية ، ٢-نهر كازانكا ، ٣- بوابة نور علي، ٤- قصر، ٥- الطابية الكبرى الشمالية الشرقية، ٦- مسجد جامع، ٧-نهر تزيتس، ٨- مدافن، ٩-البوابة الكبرى، ١٠ نهر في القرن ١٦، ١١-مستعمرة سكنية، ١٢- بوابة أتاليكوفي، ١٣-بوابة تيومين، ١٤-حمّام عام

حصل رجال الدين الأرثوذكس على بعض الامتيازات في المناطق التي سادت فيها الديانة المسيحية في فترة حكم باتو خان. وفي عهد الخاقان مينج تيمور تلقى المطران كيريل[28] من إدارة الخاقان (تقريبا في عام ١٢٦٧) مرسوما بالاعفاء من "الجزية والضرائب، واحترام خدمتهم للرب، وإيقاف المسؤولين التتر عن إهانتهم واضطهادهم".

---

[26] أوزبك خان هو سلطان قيس الدين محمد. تولى الحكم عام ١٣١٣ حتى عام ١٣٤٢، وتعد فترة حكمه أزهى فترات القبيلة الذهبية.

[27] السيِّد هو لفظ احترام يُطلق على الذكور الذين ينتسبون للنبي محمد عن طريق حفيديه الحسن والحسين. يُطلق على السيد لقب شريف في مصر ودُول أخرى.

[28] كيريل الثالث انتخبه مجلس الأساقفة مطرانًا عام ١٢٤٢ بعد فتح باتو خان لكييف.

وطبقا لهذا المرسوم ومراسيم مماثلة أخرى أصبح الإعدام هو عقوبة إهانة الكنائس والعقيدة أو المساس بممتلكات الكنيسة.

كما احتوت المراسيم أيضا على دعوة للأمراء الروس باحترام امتيازات الكنيسة تلك، وفي نفس الوقت مُنح المسيحيين في مدينة سراي[29] نفسها حقوقا واسعة. في عهد بِركة خان تم إنشاء أسقفية أرثوذكسية في سراي (عام ١٢٦٣)، والتي ساهمت في زيادة تعزيز موقف رجال الدين الأرثوذكس في القبيلة الذهبية. وكان هناك تسامح ديني على الرغم من الهيمنة الواضحة للإسلام في القبيلة الذهبية في النصف الأول من القرن الرابع عشر، ففي مدن منطقة الفولجا جنبا إلى جنب مع المساجد بُنيت الكنائس والمعابد اليهودية.



تصور بانورامي لمدينة قازان في منتصف القرن ١٦.

بريشة: روشان شمس الدينوف

بعد أن شيد خاقانات القبيلة الذهبية إمبراطورية عظيمة، سعوا لربط جميع رعاياهم في كيان واحد، وذلك لرغبتهم في وضع جميع رجال الدين في خدمتهم. وكان الرابط الوثيق للخاقانات ليس دين رعاياهم، وإنما ولائهم للسلطات. لذلك، على الرغم من أن الإسلام لعب دورا مهما في بلاط الخاقانات وكان بمثابة تصريح أيديولوجي للوصول للسلطة، إلا أنه في أوساط النبلاء، وخاصة من البدو الرحل، كان الإسلام في كثير من الأحيان القشرة الخارجية التي تغطي عبادات محلية للقديسين فضلا عن خرافات أخرى.

[29] سراي (القديمة والجديدة) اسم مدينتين كانتا عاصمة القبيلة الذهبية.

كانت القبيلة الذهبية واحدة من أنشط مراكز التجارة والتخطيط العمراني. وكان التجار العرب والأرمن والبلغار والبورتاس واليونانيون والألمان واليهود والإيطاليون والصينيون والروس والفرس والأويغوريون[30] والخوارزميون يملأون كاروانسرايات[31] أكبر مدن البلاد. كان يتم تبادل مختلف أنواع بضائع بلدان العالم القديم في واحد من أنشط المعابر التجارية في العالم، وأدت التجارة الدولية إلى ازدهار الحرف والزراعة، وشجعت على تطور صناعة بناء السفن. وساهم في ازدهار الدولة عشرات المدن الجديدة التي نشأت بعد حملات باتو خان وإعادة الإعمار والتوسع لمجموعة من المدن القديمة، والمستوى الرفيع للحرف بهم.

من بين ١٥٠ مدينة في دولة القبيلة الذهبية برزت عاصمتها: سراي القديمة والجديدة. أسس باتو خان الأولى على الضفة اليسرى من نهر الفولجا شمال أنقاض عاصمة الخزر إتيل. والثانية (الأكثر شهرة) أسسها بِركة خان على الضفة اليسرى أيضا، إلى الجنوب بعض الشيء من مدينة فولجاجراد الحالية

كتب الرحالة العربي ابن بطوطة، الذي زار المدينة في النصف الأول من القرن الرابع عشر يقول:

"ومدينة السَّرا من أحسن المدن، متناهية الكبر في بسيط من الأرض تغصّ بأهلها كثرة، حسنة الأسواق، متسعة الشوارع. وركبنا يوما مع بعض كبرائها، وغرضنا النطواف عليها،ومعرفة مقدارها، وكان منزلنا في طرف منها، فركبنا منها غدوةً، فما وصلنا لآخرها إلا بعد الزوال"

---

[30] من الشعوب التركية التي تعيش فيما يعرف اليوم باسم منغوليا، وكانت من أقوى وأكبر القبائل التركية التي تعيش في آسيا الوسطى.

[31] الكاروانِسرايُ أصلها فارسي وهي بيت للمسافرين والقوافل على الطرقات البعيدة، مبني بالحصى والجص والصاروج، سقفه محدب، وله باب واحد مع كوى في جوانبها.

لم يبالغ ابن بطوطة في شيء: فمساحة المدينة بلغت نحو ٤٨ كم^{٢}، وامتدت الضواحي بمحاذاة نهر أخطوبا[32] لمسافة ١٠٠ كيلو متر، وكان بها ١٣ مسجدا جامعا علاوة على كثير من المساجد التقليدية مستطيلة الشكل. ومن حيث عدد السكان في القرن الرابع عشر كانت سراي الجديدة واحدة من أكبر مدن العالم، إذ عاش فيها ما لا يقل عن ٧٥ ألف شخص (بينما في باريس كان يعيش حوالي ٦٠ ألف في تلك الفترة).

لقد تميزت سراي بأعلى مستوى من التخطيط العمراني، إذ مدت بها أنظمة لإمدادات المياه والصرف الصحي، كما كانت سراي الجديدة مجهزة بشبكة واسعة ومعقدة من القنوات والأحواض وحمامات السباحة والنوافير. خلقت القصور والمساجد والمآذن والمدارس الإسلامية والحمامات والكاروانسرايات والأضرحة والأحياء السكنية (التي كانت تمزج بين التقاليد المعمارية والهندسية للعالم الإسلامي والصين) انطباعا مميزا بجمال فريد. وكانت مدن المقاطعات، التي أسسها الخاقانات الأوائل للقبيلة الذهبية، تحاكي عاصمتها.

أظهرت عاصمتا القبيلة الذهبية ومدن المقاطعات رقيًا في الحرف. ولم يكن البلاط والفخار المزجج[33] أقل شأنا من نظيره في خوارزم، والأواني الزجاجية كانت كنظيراتها البغدادية، وفي تزيين الجلود لم يكن هناك مثيل للحرفيين البلغار في أوراسيا بأكملها.

وعكس الإنتاج الفكري والأدبي في القبيلة الذهبية التقاليد القومية لشعوبها، وانعكس في مجموعة متنوعة من الأشكال الأدبية كالمرثيات والأشعار والقصائد

[32] الفرع الأيسر لنهر الفولجا والذي يتفرع منه أمام الجزء الشمالي من مدينة فولجاجراد.

[33] فخار مغطى بطبقة زجاجية رقيقة.

والداستانات[34] والحكايات والروايات والمواعظ. ويعود لأدب القبيلة الذهبية روائع الأدب العالمي، مثل: "خسرو وشيرين" لقطب السراي، و "كتاب الحب" لخوارزمي، و"السلطان الجمجمة[35]" لحسام قايتباي، و"جوليستان" لسيف سراي، و"الطريق المفتوح لحدائق الجنة" لمحمود البلغاري.

الإسلام في الخانات التترية

تفككت عن القبيلة الذهبية الدول التترية في القرن الخامس عشر والسادس عشر، وهي: الخانة الكبرى وخانة النوجاي[36] وخانات القرم وقازان وقاسيموف وأستراخان وتيومين (التي أصبحت فيما بعد خانة سيبيريا). وفي هذه الدول كان هناك فهم واضح لانتمائهم للعالم الإسلامي، حيث جاء في رسالة الخاقان إبراهيم حاكم خانة تيومين لأمير موسكو العظيم إيفان فاسيليفيتش عام ١٤٨٩: "أنا قيصر مسلم وأنت قيصر مسيحي". ونفس المعنى كتبه الأمير يوسف حاكم خانة النوجاي عام ١٥٥١ م في رسالته الموجهة إلى الأمير إيفان الرابع: "نحن مسلمون وأنتم مسيحيون".

في الخانات كان هناك نظام متشعب للمؤسسات الدينية وطبقة كبيرة من رجال الدين الإسلامي وعلى رأسهم السيد الأعلى من سلالة النبي محمد. فعلى سبيل المثال كان في شبه جزيرة القرم وحدها ٢١ ألف مسجد جامع. ولعب رجال الدين في الخانات دورا نشطا في شؤون الدولة، إذ كان السادة يشاركون في اتخاذ القرار بشأن المرشح لعرش الخانة. وفي بعض الأحيان انتهت المشاركة الفعالة للسادة في الشؤون المتعلقة بالعرش بشكل مفجع،

---

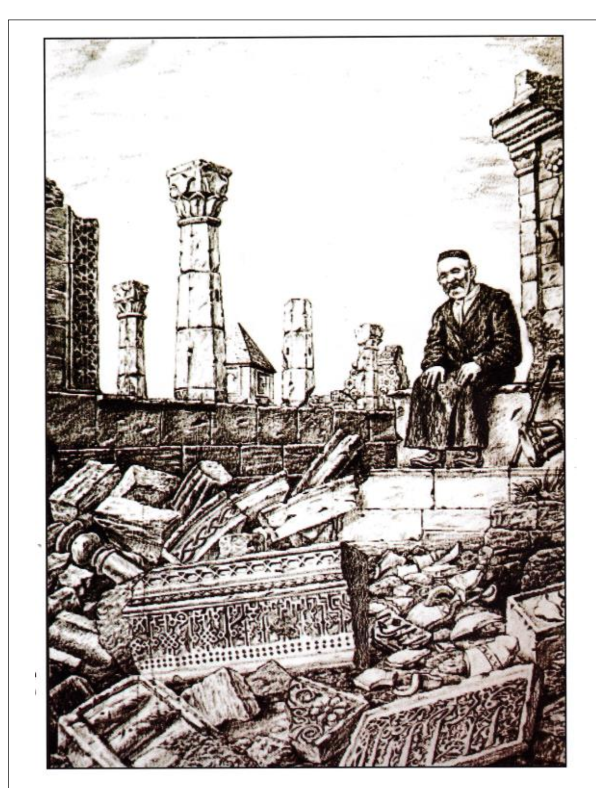
[34] أصلها فارسي ويقصد بها قصة ملحمية شعبية.

[35] قصيدة تحكي عن سلطان يمتنع عن مساعدة فقير فيصاب بمرض غير معروف ويموت ويعاقب بارسال رأسه إلى الأرض وتبقى هناك ٧٠ عاما.

[36] دولة من قبائل رُحل ظهرت بعد انهيار القبيلة الذهبية وكانت تقع بين نهر الفولجا والأورال.

إذ أُعدم اثنان من طبقة الأسياد في خانة قازان لدعمهم أحد المتنافسين على عرش الخانة (في عام ١٥٢٤ أُعدم السيد بوراش، وفي عام ١٥٥١ أُعدم السيد قول محمد).

تطلب النشاط الدبلوماسي - إلى جانب المشاركة في شؤون الدولة بشكل عام - من رجال الدين المسلمين مستوى كاف من الإلمام بالقراءة والكتابة، وتطلب من الدبلوماسيين رفيعي المستوى معرفة عميقة في العديد من المجالات. وليس من قبيل الصدفة أن "قول شريف" - آخر سيد أعلى لخانة قازان - كان ضليعا في علم الفلك، والتاريخ، والشؤون العسكرية، وأمور الدولة، وكان أيضا كاتبا بارعا وشاعرا. وكان يُكتسب مثل هذا التعليم إلى حد كبير في المدارس الدينية المحلية. وبحلول منتصف القرن السادس عشر كان هناك ما لا يقل عن ٥ مساجد في كرملين[37] قازان، الذى ألحقت به مؤسسات دراسية. وحمل رجال الدين الإسلامي مهمة ثقافية



بلغاريا الفولجية: ذكريات الأجداد.
بريشة: إلدوس عظيموف

[37] حصن في قازان وكان مركز خانة قازان، وحاليا المقر الرسمي لرئيس تترستان.

ثقيلة، إذ انشغلوا بقضية التعليم العام في الخانات التترية، حيث لم تعرف هذه الدول أية مدارس أخرى سوى المدارس الدينية.

كان نفوذ رجال الدين الإسلامي في الخانات التترية قويا، وحظوا باحترام كبير. وفي ذلك كتب الرحالة سيجمون جيربيرشتاين في عام ١٥٢٤ يقول: "بالقرب من قلعة قازان ... قابلهم أمراء هذه المملكة بأبهة وتكريم، لأن في هذا الجمع سيد ... فهو يتمتع بقدر كبير من السلطة والاحترام، إذ عند اقترابه يخرج الملوك لمقابلته، ويصافحونه وهم وقوف، وهو يجلس على ظهر حصان".

كان التسامح الديني واحدا من أبرز جوانب الحياة العامة في الخانات التترية، وهو ما يتفق اتفاقا وثيقا مع الطابع التجاري لسكان المدن، ومع تقاليد بلغاريا الفولجية والقبيلة الذهبية، فعلى سبيل المثال، كانت في قازان كنيسة مسيحية، وكان يتعامل المسلمون مع الأجانب الوثنيين أيضا بتسامح، وعمليا لم تكن هناك أية محاولات لجعلهم يعتنقون الإسلام قسرا. وفي إشارة إلى عدم وجود عنف في العلاقات بين ممثلي الأديان المختلفة في خانة قازان كان الإمام أثناء خطبة الجمعة يقف مستندا على عصا شخص فقير بدلا من سيف محارب، كما جرت العادة في بعض بلدان آسيا الوسطى.

كان للإسلام في البلدان الإسلامية في الفولجا والأورال وسيبيريا سماته المميزة، ويرجع ذلك إلى عدة عوامل. كان يرتبط وقت وطبيعة انتشار الإسلام بالعادات والطقوس الدينية للشعوب القاطنة في تلك البلدان، فمثلا في خانة سيبيريا انتشرت تعاليم الإسلام وتسربت في الحياة العامة بشكل تدريجي تحت تأثير عوامل مختلفة. بدأت هذه العملية في عصر بلغاريا الفولجية، حيث ساهم التجار البلغار ورجال الدين في سيبيريا في انتشار الإسلام. ازدادت هذه العملية خلال فترة القبيلة الذهبية إبان حكم الخاقان أوزبك خان، ويعود اكتمال عملية الأسلمة إلى فترة حكم الخاقان كوتشوم خان، الذي دعا رجال دين من آسيا الوسطى لتعزيز دور الإسلام. ولكن مع ذلك ظلت بعض القبائل الواقعة بعيدا

عن عاصمة الخانة على ديانتها القديمة، وبعد عامي ١٣٩٤- ١٣٩٥ جاءت مجموعة جديدة من الأتراك لا يعتنقون الإسلام واتجهوا إلى غرب سيبيريا، ولذلك احتفظت ثقافات ما قبل الإسلام في هذه المنطقة بالمعتقدات التقليدية ذات التأثير الملحوظ، وخاصة العقيدة التنجرية، التي تعكس الأفكار الدينية للشعوب التركية، وتقدّس الشمس والسماء.



المعركة الأخير عند مسجد "قول شريف"

بريشة: فرديناند خالقوف

المبحث الثاني:

الإسلام في الإمبراطورية الروسية

الإسلام والسياسة الدينية في روسيا بين القرنين السادس عشر والثامن عشر

بداية من عام ١٥٥٢ م اتجهت دولة موسكو - بعد ضم أراضي خانات قازان وأستراخان وسيبيريا - إلى تنصير الشعوب غير الروسية، ومن ثم إضفاء الطابع الروسي عليها واستيعابها. لأول مرة في عام ١٦٤٩ م نص التشريع في قوانين مجلس زيمسكي[38] على أن الأرثوذكسية هي دين الدولة الرسمي وأن للكنيسة الحق الوحيد للقيام بالعمل التبشيري في البلاد. ظهر رفض السلطات للإسلام أيضا في إدراج مادة خاصة في القانون تنص على عقوبة الإعدام على المسلمين الذين يُدخلون الروس في دينهم.

ولكن في قوانين مجلس زيمسكي حصل الإسلام، ولو بشكل جزئي، على الاعتراف القانوني، فقد تم الإقرار فيها على أن يقسم ممثلي الأديان الأخرى قسم الولاء طبقا لعقائدهم، أي أن قسم الولاء للملوك الروس كان يتم طبقا لدين الشخص الذي يُقسم.

في نشاطها التبشيري وجهت الحكومة اهتمامها الرئيسي إلى تنصير تتر الفولجا، وهم تحديدا أصبحوا الشعب المسلم الوحيد في روسيا تقريبا، الذي حاولت دولة السلطة المطلقة استيعابه دينيا بشكل ممنهج. وعانت البشكير وتتر أستراخان وسيبيريا، الذين وقعوا مبكرا تحت سلطة التاج الروسي، من الاضطهاد الديني بدرجة أقل بكثير، حيث أنهم كانوا يعيشون في المناطق الحدودية للدولة الروسية قبل منتصف القرن الثامن عشر (أي قبل الاعتراف الرسمي والقانوني بالإسلام)، حيث المشاعر المعادية للإسلام مقيدة دائما بعامل القرب من الدول الإسلامية المستقلة والمجموعات القبلية.

---

[38] هيئة نيابية عليا كان مُمثل بها جميع طوائف الشعب لمناقشة القضايا السياسية والاقتصادية والإدارية، واستمرت من منتصف القرن السادس عشر حتى أواخر القرن السابع عشر.

وأدى هذا بشكل كبير إلى أن معظم المراسيم القيصرية المتعلقة بالشأن الديني على مدار أكثر من قرنين كانت تخاطب تتر الفولجا تحديدا. فقط في نهاية القرن الثامن عشر فقدت القوانين الروسية الخاصة بالمسلمين تدريجيا شكلها "التتري" الأول واكتسبت صبغة متعددة القوميات بشكل أكبر.

في بادئ الأمر أوكلت المهام التبشيرية في مناطق نهر الفولجا الأوسط إلى الكنيسة الأرثوذكسية، وبالضرورة أصبحت الأديرة، التي تلقت هبات قيصرية ضخمة من الأراضي، مراكزا لدعم التنصير في المنطقة، وكانت إدارة العملية موكلة لأبرشية قازان، التي أُنشئت خصيصا عام ١٥٥٥ م. وبهدف نشاط تبشيري أكثر نجاحا تم تنظيم لجنة تبشيرية عام ١٧٣١ م في قرية سفياجيسك[39]، والتي تحولت عام ١٧٤٠ م إلى المكتب التبشيري، وتم إنشاء الأكاديمية اللاهوتية في قازان عام ١٧٤٢.

ومع ذلك تم تحقيق نتائج حقيقية بفضل المشاركة المباشرة من الدولة في هذه العمليات، التي بهدف إضعاف موقف الإسلام أصدرت قوانين تلزم السلطات المحلية بتدمير المساجد، وإبقاء المسيحيين الجدد، الذين كانوا يميلون إلى العودة إلى معتقداتهم السابقة، في الديانة المسيحية بالقوة، وكذلك بالمتابعة الدقيقة لالتزامهم بأداء الطقوس الأرثوذكسية.

بداية من قوانين مجلس زيمسكي في عام ١٦٤٩ م كان هناك دائما في التشريعات الروسية مادة لملاحقة الأنشطة التبشيرية للدعاة المسلمين. بلغ الضغط الاقتصادي على المسلمين أقصاه في سنوات حكم بطرس الأول، عندما وضع على عاتق التتر الرافضين التخلي عن دين أجدادهم واجبات ومسئوليات السكان الوثنيين، الذين تنصروا.

---

[39] قرية وجزيرة في منطقة زيلينودولسك بتترستان عند التقاء نهري سفياجا وشوكي.

أسفرت جهود الكنيسة والدولة على مدى قرون لتحويل الشعوب غير الروسية إلى المسيحية الأرثوذكسية عن ظهور مجموعة "الكراشيني" (المسيحيين التتر) بين التتر. وبحلول الستينيات من القرن الثامن عشر وصلت نسبتهم في التركيبة السكانية التترية في الفولجا والأورال إلى أقصى حجم وهو ٧,٦%، إلا أنه في بداية القرن العشرين بلغت نسبتهم إلى العدد الإجمالي للتتر أقل من ٤,٢%. وهذه النسب المتدنية تُعد شاهدا على فشل السياسة الدينية للحكومة تجاه المسلمين، ويظهر هذا جليا خاصة بالنظر للشعوب الوثنية في منطقة نهر الفولجا الأوسط، مثل: التشوفاش[40] والماريين[41] والمردوفيين[42] والأودمورتيين[43]، والتي تنصرت بشكل كامل.

اكتسب الإسلام الصبغة القانونية كدين رسمي في روسيا عام ١٧٧٣ م مع إقرار مرسوم "التسامح بين جميع الأديان"، عندما قامت الحكومة الخائفة من انتفاضة التتر والبشكير تحت قيادة باطيرشا[44] (١٧٥٥-١٧٥٦) بتخفيف حملة التنصير التي كانت تقوم بها في المناطق الإسلامية من الإمبراطورية على مدى العقد ونصف السابقين.

أُعتبرت هذه السياسة الدينية للدولة الروسية وإدخالها لمؤسسات جديدة لإدارة السكان المسلمين بمثابة تهديد مباشر لطريقة الحياة التقليدية والثقافة الوطنية. وبحلول القرن السابع عشر أصبحت المواجهة واضحة لدرجة أن قوى سياسية معينة حاولت استخدامها في الصراع من أجل التاج الروسي. فمثلا في عام ١٦٠٩، وبعد خسارته لكل

---

[40] شعب ذو أصول تركية يعيش حاليا في جمهورية تشوفاشيا.

[41] شعب فينو - أوغوري يعيش حاليا في جمهورية ماري.

[42] شعب فينو - أوغوري يعيش حاليا في جمهورية موردوفيا.

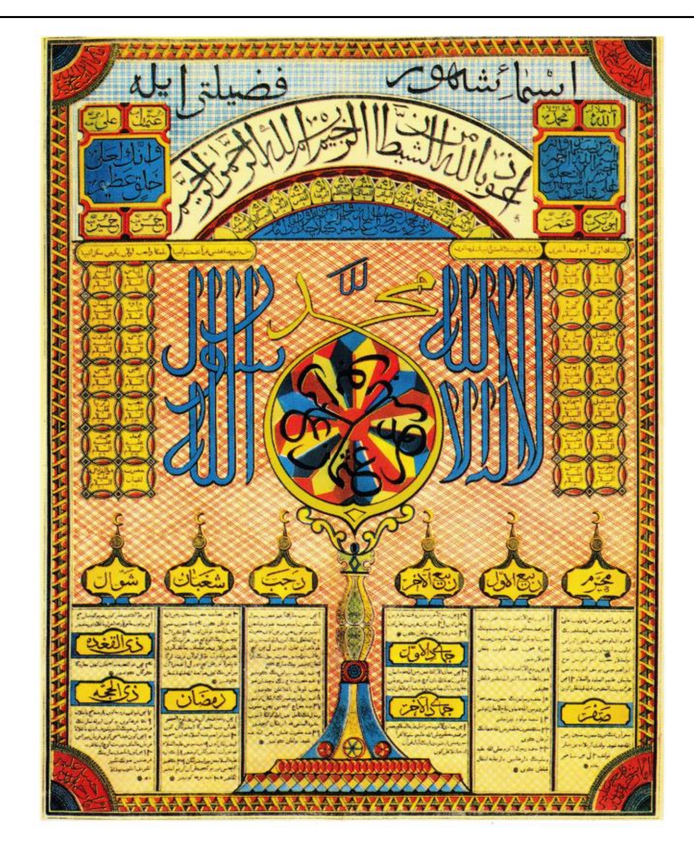
[43] شعب فينو - أوغوري يعيش حاليا في جمهورية أودمورتيا.

[44] اسمه الحقيقي عابدالله جالييف وهو مفكر وقائد الانتفاضة البشكيرية.

الفرص للفوز في هذا الصراع، قال ديمتري الكذاب الثاني[45]: "أملي الأخير هو التتر والأتراك". ولجأ التتر أنفسهم إلى كل الأشكال الممكنة للمقاومة والتي تراوحت من عدم القبول السلبي إلى المقاومة المسلحة النشطة وطلب المساعدة من دول أخرى، ففي عام ١٦٦٠ أرسل التتر والبشكير ممثليهم إلى تركيا وشبه جزيرة القرم لطلب المساعدة.

بعد خسارته لمؤسساته في روسيا اكتسب الإسلام طابع الدين "الشعبي"، ويرجع ذلك إلى القضاء على النخبة الإقطاعية في خمسينيات وستينيات القرن السادس عشر نتيجة للتظاهرات الشعبية. ذابت المجموعة، التى تحولت لخدمة القيصر الروسي، تدريجيا في مختلف طبقات المجتمع الروسي. وأدى تدمير المساجد، وإغلاق المؤسسات التعليمية، واضطهاد رجال الدين، وعدم وجود أي نظام تعليم وطني إلى انخفاض حاد في أعداد رجال الدين.

[45] التاريخ الروسي لا يعتبره قيصر على الرغم من أنه سيطر على معظم أراضي الدولة الروسية باستثناء موسكو التي ظلت تحت إدارة القيصر الرسمي فاسيلي شويسكي، وسمي كذلك لأنه ادعى أنه ابن إيفان الرهيب.



الشهور الهجرية: ويبدو في الجزء الأسفل من اللوحة ثبت بأسماء ١٢ شهر قمري. مع وصف للأحداث المهمة والأعياد الدينية في كل شهر. فعلى سبيل المثال كتب أسفل شهر محرم أنه أول شهور السنة مع الإشارة إلى يوم عاشوراء الموافق للعاشر من محرم. واستنادا إلى التراث الإسلامي الشعبي التتري فقد نجى الله ١٠ من الأنبياء في هذا اليوم منهم ٨ من الرسل: آدم، إدريس، نوح، إبراهيم، موسى، يوسف، أيوب، يونس.

وقد وردت بعض الأخطاء في اللوحة، منها على سبيل المثال أن أول آية في القرآن نزلت في شهر جمادى الثانية، والصواب أنها نزلت في رمضان.

كنتب محتويات هذه اللوحة "محمدجان حجا سعيدوف" من قازان وحولها إلى لوحة فنية الفنان فاراكسين.

للحفاظ على أسس المجتمع التقليدي حاول المسلمون استخدام الهياكل التي لم تتعرض للتدمير وقتها والمتأصلة بقوة في الحياة الروحية للشعب. على سبيل المثال تعزز

دور المؤسسات العامة القديمة مثل الجين[46]، والتي نشأت في شكل عشائري قديم، ومن ثم تحولت تدريجيا إلى الشكل القروي. كان لكل جماعة قروية هيكل واضح إلى حد ما، فعلى رأس كل جماعة كان هناك مجموعة من الشيوخ الوجهاء، الذين لديهم قدر كبير من تجربة الحياة ويتمتعون بمكانة بين السكان، وكانت قرارات مجلس الشيوخ ملزمة لجميع أعضاء الجماعة.

في القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر عززت الصوفية موقفها بشكل كبير، حيث تغلغلت في مناطق نهر الفولجا الأوسط في وقت مبكر، في وقت متزامن مع تغلغل الإسلام. وفي القرن السادس عشر إلى الثامن عشر ساعدت الصوفية في توحيد الأمة الإسلامية لمواجهة التهديد الخارجي ومواجهة القلاقل الداخلية. وكان الهدف من إحياء التقاليد الصوفية هو مواجهة عنف وقسوة العالم المادي الفرداني، وإثراء الروح. وكانت هناك قوة أيديولوجية قوية خلف السلبية الاجتماعية الخارجية لتعاليم الصوفية ساعدت المسلم على تحمل الغزو والدمار والذل، والبقاء على قيد الحياة.

من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر كفل الإسلام لمسلمي روسيا بعض الاستقرار، وعلى الرغم من عدم إنقاذه المجتمع من الهزات، إلا أنه ساهم في الحفاظ على عناصر الهيكل الاجتماعي، وإطالة عمر التقاليد الثقافية. ووفرت المؤسسات الدينية الباقية التوافق بين العناصر غير المتجانسة اجتماعيا وسياسيا، ومكنت المجتمع الإسلامي من التنظيم الذاتي.

---

[46] الجين كلمة أصلها تتري وتعني مجلس، وهو مجلس شعبي لدى التتر والبشكير وشعوب تركية أخرى وهو يشبه جهاز حكم محلي.

أدركت الحكومة الروسية، وخاصة في عهد كاترين الثانية[47]، أن المجتمع المسلم الذي عاش بشكل رئيسي على نهج مبادئ الإسلام ظل بمعزل عن التنمية الاجتماعية والسياسية في روسيا، لذا كان من الضروري وضع آليات أكثر فعالية تتجاوز التنصير القسري لإشراك المسلمين في نظام الدولة الروسية. وكانت الخطوة الأولى في هذا الاتجاه هي التدابير الحكومية الرامية إلى السيطرة على رجال الدين المسلمين. عام ١٧٣٦ م أصدرت الإمبراطورة آنا إيفانوفا[48] مرسوما يضع كبار رجال الدين الإسلامي تحت سيطرة الإدارة المحلية. لكن التغييرات الجوهرية في السياسات الوطنية والدينية لم تحدث إلا في عهد الإمبراطورة كاترين الثانية.

الاتجاهات الجديدة للأمة الإسلامية في روسيا

كان عام ١٧٨٨ نقطة تحول في سياسة الحكومة القيصرية، حيث لم تحقق الأساليب القديمة في التعامل مع السكان غير الروس نتائج ملموسة، ووجب التخلي عنها، في وقت لم يكن قد تم تطوير أساليب جديدة. ولزيادة فعالية السياسات الوطنية والدينية أصبح من الضروري إنشاء جهاز إداري يمكنه السيطرة على المسلمين وتنفيذ الأنشطة اللازمة للحكومة. وتمشيا مع الاتجاه للمساواة الدينية الملحوظ في روسيا في نهاية القرن الثامن عشر تم إعداد مشروع كيان إسلامي جديد ألا وهو مجلس أورينبورج[49] الإسلامي.

في ٢٢ سبتمبر عام ١٧٨٨ أصدرت كاترين الثانية مرسوما إمبراطوريا ينص على "تحديد مناصب الإفتاء والمهام الدينية الأخرى في الدين الإسلامي وإنشاء الجمعية

[47] كاترين الثانية أو كاترين العظمى إمبراطورة لعموم روسيا في الفترة ١٧٦٢-١٧٩٦، ووصلت للحكم بانقلاب على زوجها بطرس الثالث.

[48] إمبراطورة روسية من أسرة رومانوف، وهي الابنة الرابعة للقيصر إيفان الخامس.

[49] مدينة في جنوب الأورال، والمركز الإداري لإقليم أورينبورج.

الروحية في مدينة أوفا لإدارة جميع المسؤولين الروحيين المقيمين في روسيا". وطبقا لهذا المرسوم تم إنشاء مجلس أورينبورج الإسلامي، الذي وُكل إليه السيطرة على أنشطة رجال الدين المسلمين في جميع أنحاء روسيا، عدا شبه جزيرة القرم. وتم استنباط هيكل المؤسسة الجديدة من نظام الإدارة الروحية للمسلمين في الإمبراطورية العثمانية، ووفقا للقواعد يترأس المنظمة الرئيس أو المفتي، وكان مستشاروه ونوابه ثلاثة قضاة مسلمين، وكان يتم اختيار أعضاء (قضاة) مجلس أورينبورج الإسلامي من تتر إقليم قازان في المقام الأول.

كان إنشاء الإدارة الروحية للمسلمين أمرا ضروريا للمسلمين، الذين يعترفون فقط بالسلطة الدينية ، وكذلك كان الأمر ضروريا للدولة الأوتوقراطية، التي حاولت لعدة قرون دون جدوى السيطرة على هذا المجتمع وإدارته. حاول التتر عبر تلك الإدارة تحقيق فكرة الاستقلال في المقام الأول، وكان يجب أن تصبح هيئة الإفتاء هي الجهة التي تحمي حقوقهم وتقوم بتنسيق الإجراءات الهادفة إلى تحقيق ليس فقط الأهداف الدينية للمسلمين، وإنما أيضا الأهداف السياسية.

صارت الهيئة الروحية للمسلمين تتبع إداريا الحكومة الروسية، ومنذ عام ١٨١١ كانت تتبع تحديدا قسم الأديان الأجنبية بوزارة الداخلية في الإمبراطورية الروسية، وبالتالي كان يُعين مفتي المجلس الإسلامي من قبل الحكومة، وطبقا للقواعد المنظمة لمجلس أورينبورج الإسلامي كان القضاة يُعينوا من قبل وزير الداخلية بناءً على اقتراح المفتي. عند إنشاء الهيئة الروحية للمسلمين حاولت الحكومة تطبيق الهيكل الهرمي القائم لإدارة المؤسسات الدينية، وأخذت بعين الاعتبار الهياكل القائمة لرجال الدين المسلمين في منطقة الفولجا. لكن بطبيعة الحال لم يُراعِ القانون الروسي خصائص الشريعة في تحديد مهام رجال الدين. تأسست هيئة الإفتاء من قبل الحكومة الروسية وكانت تنفذ المهام الموكلة إليها، وحاولت السلطات تعيين رجال دين موالين للدولة الروسية.

وكان محمدجان خوسينف أول مفتي يشغل منصب رئيس هيئة الإفتاء منذ عام ١٧٨٨ حتى عام ١٨٢٤، وكان واحدا من المبادرين لإنشاء الهيئة الروحية وبذل جهودا كبيرة من أجل تنفيذ أهدافها الرئيسية. ودعي محمدجان خوسينف لإعادة بناء المباني الدينية المدمرة، وهو الأمر الذي لم يكن في صالح الدولة تماما. ولذلك وللحد من إمكانيات المفتي - المحدودة أصلا - وافق مجلس الشيوخ على نظام جديد لعمل مجلس أورينبورج الإسلامي، حيث تم تقليص حقوق رئيس المجلس بصورة أكبر.

أصدر ألكسندر الأول مرسوما بتشكيل وزارة الشؤون الدينية والتعليم العام، حيث نصّ المرسوم على أن يُنتخب المفتي من قبل المجتمع المسلم (الأمة)، وتم إدراج هذا القرار في قواعد عمل عام ١٨٣٦ لقسم الشؤون الدينية والأديان الأجنبية، ولكن لم تلتزم الحكومة القيصرية به حتى عام ١٩١٧، حين وجدت نفسها في حاجة لشخص موالٍ للدولة في منصب رئيس المجلس الروحي.

كان نشاط رؤساء المسلمين الروس يهدف لتنفيذ التوجهات الرئيسية للسياسة الدينية للحكومة الروسية، لذلك كانت الأنشطة الرئيسية للهيئة الروحية ذات طابع إداري. ولكن على الرغم من ذلك، حاول المُفتُون تحقيق أقصى استفادة من منصبهم لتحسين أوضاع المجتمع المسلم. على سبيل المثال، اقترح المفتي خوسينف مشروع إعادة تنظيم التعليم الإسلامي، وجاء بفكرة إنشاء معهد إسلامي في جامعة قازان وأورينبورج. وفقا لهذا المقترح، يتم تدريس علوم دنيوية مثل علم الحساب والجغرافيا في هذا المعهد العالي إلى جانب العلوم الدينية، كما اعتزموا دراسة اللغات الفارسية والعربية والتركية والتترية. وكان المفتي يعتقد أن معرفة اللغة الروسية لرجال الدين أمرا ضروريا.

في عام ١٧٨٧ وبفضل جهود المفتي محمدجان خوسينف صدرت الطبعة الأولى من القرآن الكريم في روسيا، وشكل هذا دفعة لتطور الطباعة بين التتر.

تم تعيين المفتي الثاني عبدالسلام عبدالرحيموف (١٨٢٤-١٨٤٠)، الذي كان يحاول تعزيز دور هيئة الإفتاء، ولكن السياسة الدينية للقيصر الروسي نيكولاي الأول قيدت هذه الإمكانية. بدأ المفتي عبدالرحيموف في إعادة بناء أماكن العبادة الإسلامية، وبشكل متكرر ناشد مواطنيه لتحسين أخلاق المجتمع. حاول المفتي في إطار منصبه الإداري إشراك المجتمع المسلم في الحصول على التعليم الدنيوي، وكانت إرشاداته لها شعبية كبيرة وتلقى إقبالا كبيرا لدى السكان.

منذ عام ١٨٤٠ شغل عبدالواحد سليمانوف (١٨٤٠-١٨٦٢) منصب رئيس مجلس أورينبورج الإسلامي، ومن أهم أعماله كتاب عنوانه "قواعد العلاقات الأسرية والزوجية" الذي نُشر عام ١٨٤١، وكان مفيدا للمسلمين الذين يعيشون في مجتمع متعدد الأديان. وتغطي هذه القواعد جميع العلاقات الأسرية والزوجية للمسلمين، حيث تم إعطاء قدر كبير من الاستقلالية في إقرارها لرجال الدين المحليين.

نتيجة للتغيرات التي طرأت على المجتمع الروسي في فترة ما بعد الإصلاح تغيرت سياسة الحكومة تجاه رجال الدين المسلمين. كان المفتون الثلاثة الأوائل قد شاركوا بفاعلية في السياسة الروسية في آسيا الوسطى والقوقاز، وصار رؤساء المجلس الروحي ينشغلون بالقضايا التي تمس منطقة الفولجا والأورال بشكل مباشر.

قبل ذلك كان المحافظ العام لأورينبورج يلعب الدور الحاسم في اختيار المرشحين، أما الآن فقد انضم لمسألة اختيار المفتي قسم الشؤون الدينية والأديان الأجنبية بوزارة الداخلية، الذي عين المفتي الجديد ساليماجراي تيفكليف، وهو ضابط عامل وأحد النبلاء بالوراثة من سلالة خاقانات القبيلة الذهبية. وكمفتي كان ينفذ مهمته كرئيس رسمي للمسلمين، فكان يعارض تخلي المسلمين عن تنفيذ أوامر الإسلام، وهو ما كان ملحوظا في القرن التاسع عشر، وهذا، في رأيه، أدى إلى التدهور الأخلاقي للمجتمع

الإسلامي بأسره. ولكن كمسؤول حكومي عُين في هذا المنصب من قبل الحكومة القيصرية، فإن التشريع الروسي حد من نطاق مسؤولياته.

عمليا لم يتغير الموقف تجاه مجلس أورينبورج الإسلامي حتى عام ١٩١٧. فقد خدم المفتي محمديار سلطانوف (١٨٨٦ -١٩١٥) ومحمد صفاء بايزيتوف (١٩١٥-١٩١٧) بإخلاص في بلاط الإدارة الإمبراطورية، وأثناء ذلك أخذوا في الاعتبار أيضا مصالح المسلمين، ولم يساعد دعم الجهات الحكومية المختلفة، التي غالبا ما تضر بالحقوق الدينية للمسلمين، على وجود نفوذ لمجلس أورينبورج الإسلامي بين جزء كبير من رجال الدين والمثقفين المسلمين.

الإسلام في ظل العلاقات الاجتماعية والاقتصادية الجديدة

عبّر التخفف من حدة السياسة الدينية للسلطات عن نفسه في عدد من التشريعات تهدف إلى إظهار احترام الدولة للمشاعر الدينية للجالية المسلمة المتزايدة في روسيا. ومن بين تلك التشريعات سلسلة من المراسيم في أربعينيات القرن الثامن عشر كان نتيجتها استبدال رموز المسيحية (مثل الصليب أو صور القديسين وغيرها) الموجودة على الأوسمة التي تُعطى للمسلمين بالنسر الإمبراطوري، وكذلك مرسوم عام ١٨٤٩، الذي أمر بإعفاء السجناء المسلمين يوم الجمعة من العمل لأداء الصلاة وغير ذلك.

في ستينيات القرن التاسع عشر أخذت السياسة الوطنية في روسيا منحى خطير، فبعد الانتفاضة البولندية عام ١٨٦٣ أصبح ضم الأقاليم الحدودية الوطنية للإمبراطورية مرة أخرى أمرا حيويا. وأضف إلى ذلك التوحيد اللغوي والثقافي في شكل إضفاء الطابع الروسي. جاء تشديد موقف الحكومة تجاه السكان المسلمين في منطقة نهر الفولجا الأوسط مبكرا قليلا نتيجة موقفهم السلبي تجاه حرب القرم في أعوام ١٨٥٣-١٨٥٦. وهنا

لعب ازدياد عملية "ارتداد" التتر المسيحيين عن المسيحية وظهور اتجاهات عصرية جديدة في المجتمع الإسلامي دورا مهما.



شعائر صلاة في مدرسة إسلامية

في هذه الفترة لم تنظر الحكومة للإسلام على أنه ببساطة ديانة "أجنبية" وغريبة على العقيدة الأرثوذكسية، بل قوة "خطيرة" على سلطة الدولة المطلقة. ونتيجة لذلك زادت الأنشطة التبشيرية، وتجلت في تصرفات السلطات الرغبة في تدمير هيئة إفتاء أورينبورج بهدف إضعاف تأثيرها على المسلمين، ووضع عوائق أمام انتشار نفوذ رجال الدين التتر في المناطق الشرقية من الإمبراطورية، وكذلك تبعية رجال الدين المسلمين للإدارة القيصرية عن طريق تطبيق شروط مقيدة في التعليم ومجالات أخرى.

دخلت المدرسة في خضم الصراع الأيديولوجي، وحاولت الدولة وضع النظام التعليمي للشعوب المسلمة تحت سيطرة وزارة التعليم، وهو النظام الذي كان يوجد بشكل تقليدي في المجتمعات الإسلامية. وكان هناك دوافع دينية أيضا وراء منع ممثلي

البرجوازية التترية من القيام بأعمال تجارية، وتملك العقارات في مناطق آسيا الوسطى، وكذلك فرض قيود على تدريس المسلمين في المدارس الحكومية وشغل الوظائف في الإدارة المحلية.

ظل الإسلام في هذا الوضع حتى بداية القرن العشرين، عندما اضطر تفاقم الوضع الثوري الحكومة إلى القيام بشيء من التحرير للسياسة الداخلية. في عام ١٩٠٤ تم توقيع مرسوم ملكي بشأن "خطط تحسين نظام الدولة"، حيث تم إعداد إجراءات لإعادة النظر في التعامل "مع الديانات غير الأرثوذكسية وغير المؤمنة". وتعد لوائح ١٧ أبريل ١٩٠٥ وثائق مهمة للمسلمين، حيث وسعت نطاق تطبيق مبدأ التسامح الديني. ووفقا لهذه الوثيقة لا يُسمح بالإبقاء بالقوة في دين ما، وكذلك لا يجب أن تتم ملاحقة التحول إلى الإسلام. وأعلن بيان ١٧ أكتوبر ١٩٠٥ الحريات المدنية الأساسية، بما في ذلك حرية الاعتقاد (حرية الضمير[50]). جاءت هذه الإجراءات القانونية، التي رفعت العديد من القيود عن المسلمين، لتعبر عن عملية إعادة التوجه التدريجي للمجتمع الروسي والنظام القانوني للدولة نحو مبادئ الحق البرجوازي، الذي يتمحور حول الحرية الشخصية. لكن لم تكتمل هذه العملية بسبب أحداث عام ١٩١٧.

وفيما يتعلق بالعمليات التي حدثت داخل الأمة الإسلامية، تجدر الإشارة إلى أن القرن الثامن عشر تحديدا شهد تحول المجتمع الإسلامي في روسيا إلى طريق التنمية الحديثة، ويعتبر عبد الناصر قرصاوي وقيوم ناصري وإسماعيل بك جسبرينسكي وشهاب الدين مرجاني هم مؤسسي هذه الحركة الجديدة بين المسلمين الروس، وهم بالتحديد من أعلنوا ولأول مرة عن حق كل مؤمن أن يبحث في القرآن الكريم والأحاديث عن إجابات على

---

[50] حرية الضمير تعني الحرية في امتلاك أي أفكار أو معتقدات، وهي أعم من حرية الاعتقاد أو الديانة، ونص عليها حديثا الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في المادة ١٨.

جميع الأسئلة السياسية والاجتماعية والدينية. وبفضل عملهم مُهد الطريق للإصلاح في مجالات أخرى كاللغة والتعليم وإعادة البناء السياسي للمجتمع.

لكن الأفكار المبتكرة للمفكرين التتر فيما يتعلق بعلوم الدين لم تستطع وحدها أن يكون لها تأثير ملموس على الوعي الجمعي. وليس من قبيل المصادفة أن الأفكار والمبادئ المقترحة من قبل المفكرين المسلمين في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر لم تكن معروفة سوى لعدد قليل من علماء الدين والمثقفين. ولم تستطع أن تدخل في الوعي الجمعي وذلك بسبب غياب المؤسسات الأيديولوجية اللازمة، وحتى ثمانينيات القرن التاسع عشر لم يكن هناك أية وسائل إعلام للترويج لهذه الأفكار. ولم تستطع المدارس الدينية الاضطلاع بهذه الوظيفة، إذ كان يُدرس فيها في الغالب خريجو المؤسسات التعليمية في آسيا الوسطى، والتي كان الفكر العلمي فيها في حالة جمود. غير أنه مع ظهور المدارس الجديدة (الجديدية[51]) وكذلك ظهور أول الدوريات ("الترجمان" لإسماعيل جسبرينسكي في عام ١٨٨٣) تجلت بوادر لإدخال أفكار دينية وإصلاحية في الوعي الجمعي.

كانت الجديدية واحدة من الاتجاهات الرئيسية للفكر الإصلاحي الإسلامي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أدرك فيها المجتمع الإسلامي الروسي أنه في حاجة إلى توجهات قيمية جديدة، وكانت المدرسة الإسلامية القديمة تُعنى بإعطاء معارف مصدرها القيم الدينية والأخلاقية، التي اعتبرها الناس أبدية وكافية بذاتها.

لم تحظَ الأشكال الأخرى للمعرفة، حتى تلك التي كان يمكن أن تكون مفيدة لأغراض عملية، باهتمام كبير في المدارس الدينية القديمة. وكانت مهمة المدارس الجديدة

---

[51] الجديدية حركة سياسية واجتماعية وثقافية للشعوب المسلمة في الإمبراطورية الروسية في نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وكانت الحركة المضادة لما يسمى بالقديمية والتي تشير إلى الأفكار المحافظة.

مد الجسور بين المعرفة الحديثة (بما في ذلك الغربية) والثقافة الإسلامية، وإدخال العلوم الحديثة في نظام المعارف الإسلامية. وهذا يعني إدخال عناصر النموذج العلماني في النظر للعالم، المبني على مبادئ العقلانية. وقد تسبب هذا النهج في جدال حاد بين المثقفين المسلمين، حيث دار الحديث حول استخدام مفهومين ثقافيين للمعرفة. عارض أنصار الطريقة القديمة (القديميون) الجديدية بشدة، معتبرين أنها تشكل تهديدا للثقافة الإسلامية والنظرة للعالم.

في هذه الفترة أكدت الحركة الإصلاحية الدينية قدرة الإسلام على التكيف مع الظروف الجديدة. هزت الجديدية أسس النظرة القديمة للعالم، وقوضت سيطرة العقائد الجامدة والأفكار المنعزلة عن الواقع، والقواعد التقليدية للعلاقات الاجتماعية. ومع ذلك، فإن الوعي الجماهيري ظل دينيا، حيث لم يكن هناك بديل أيديولوجي مستقل حتى بداية القرن العشرين.

اهتم الإصلاحيون في الفكر الإسلامي، وخاصة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بالقضايا القومية بشكل أكبر (على سبيل المثال تناول قيوم ناصري مشاكل الإبداع الشعبي واللغة الأدبية وإثنوجرافيا الشعب؛ واقترح شهاب الدين مرجاني تصورا علميا لأصل الشعب التتري). بدأ تشكيل أيديولوجية حركة التحرر الوطني المميز لهذه الفترة بالتوجه إلى الثقافة القومية وإحياء الاهتمام باللغة الوطنية، وكذلك بإحياء الأمجاد السابقة للشعب و"عصره الذهبي"، وبالتربية على شعورالوطنية وتشكيل الوعي القومي. وكانت هذه الأمور بمثابة العامل الرئيسي لتكوين الأمة.

تطورت الثقافة والتعليم لمسلمي روسيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تحت التأثير السائد للدين الإسلامي، ولكنهما اكتسبا تدريجيا مكونات دنيوية. وكان لطباعة الكتب نصيب خاص، وزادت حصة كتب التاريخ والفلسفة والفن الشعبي، وطبع الأدب التربوي والفني في طبعات كبيرة. وبلغ العدد الكلي للكتب المطبوعة في المدن الروسية

بلغات الشعوب الإسلامية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ٢٧ مليون نسخة لأكثر من ثلاثة آلاف كتاب. وخلال الفترة من عام ١٩٠١ وحتى عام ١٩١٧ صدر حوالي ٤٧ مليون نسخة لما لا يقل عن ٦٢٠٠ كتاب. وبحلول عام ١٩١٣ جاءت الشعوب الإسلامية في المركز الثاني في الإمبراطورية الروسية من حيث عدد نسخ الكتب الوطنية المنشورة.

حدثت تغييرات جذرية في نظام التعليم، واستمرت شبكة المؤسسات التعليمية الإسلامية في التوسع، ففي منطقة قازان التعليمية عام ١٨٩٤ كان هناك ١٤٧٤ كُتاب ومدرسة دينية، وبحلول عام ١٩١١ بلغ عددهم ١٨٢٢. انتشرت بصورة واسعة المدارس الجديدية في هذه الفترة، التي نشأت تحت تأثير أفكار إسماعيل جسبرينسكي وشهاب الدين مرجاني. في المدارس الجديدية، التي أصبحت واسعة الانتشار في منطقة الفولجا بنهاية القرن التاسع عشر، تضمنت العملية التعليمية والمنهجية عناصر أساسية مثل المنهج الصوتي لتعليم القراءة والكتابة بدلا من المنهج الحرفي[52]، وكذلك النظام الفصلي - الدرسي[53]، واستخدام الوسائل التعليمية المدرسية.

لقد زادت في المدارس الدينية المواد الدراسية، حيث تم إضافة علوم دنيوية للمواد الدينية التقليدية، بما في ذلك اللغة الروسية. لم تكن بعض المدارس الدينية الجديدية (مثل "المحمدية" و "القاسمية" في قازان، و"الحسينية" في أورينبورج، و"جاليا" في أوفا، و"بوبي" في محافظة فياتكا[54]) من حيث جودة مناهجها الدراسية أقل شأنا من

---

[52] منهج لتعلم القراءة والكتابة تم استخدامه في اليونان وروما قديما، وكان معروفا في روسيا من القرن السادس عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر.

[53] النظام المتبع حديثا وهو جمع عدد من الدارسين ذوي السن الواحد في فصل واحد لدراسة مواد بعينها على مدى مدة محدد (العام الدراسي)، ويكون الدرس الشكل الأساسي للدراسة.

[54] فياتكا مدينة في الإمبراطورية الروسية والاتحاد السوفيتي وتسمى الآن كيروف، وتقع على نهر فياتكا، وعلى مسافة ٨٩٦ شمال شرق موسكو.

المدارس الكلاسيكية، وتختلف عن الأخيرة فقط في تفضيل اللغتين العربية والفارسية على اللاتينية واليونانية.

أعطت الثورة الروسية الأولى دفعة قوية لتطوير وسائل الإعلام الإسلامية. وكان صدور جريدة "نور" في بطرسبرج و"جريدة قازان" في قازان في عام ١٩٠٥ مرحلة جديدة في تطور الثقافة الروحية للشعوب الإسلامية، حيث حصلوا على إمكانية الوصول لمصادر المعلومات، التي طال انتظارها. وحتى عام ١٩١٧ أسس المسلمون وطبعوا ما يصل إلى ١٠٠ صحيفة ومجلة، كان أشهرها صحف "الإصلاح" و"بيان الحق"، و"النجمة" و"جريدة قازان"، ومجلات "الدين والأدب" و"المعلومات" (في قازان)، وجريدة "الزمن" ومجلات "الدين والحياة" و"الشورى" (في أورينبورج)، وصحف "التقدم" و"الفولجا" ومجلة "الإصلاح" (في أستراخان)، ومجلة "الاقتصاد" (في سمارا)، وصحف "البلد" و"نور" (في بطرسبرج).



قاعة الدرس في مدرسة إسلامية في تترستان

بعد ثورة ١٩٠٥-١٩٠٧ حاول المسلمون الروس التوحد فكريا وسياسيا، وسعوا لوضع رؤيتهم لآفاق تنمية روسيا، ولتقديم مشاريعهم السياسية للحكومة. في أغسطس عام ١٩٠٥ عُقد المؤتمر الأول لمسلمي روسيا على نهر الفولجا بالقرب من مدينة نيجني نوفجورود وعلى سفينة مستأجرة لإقامة هذه الفاعلية، وترأسه إسماعيل جسبرينسكي، الذي لقي دعم المؤتمر الكامل لأفكاره الساعية إلى توحيد المسلمين الأتراك الروس في منظمة واحدة للدفاع عن مصالحهم، وتقرر إنشاء حزب "اتحاد المسلمين"، الذي كان عليه النضال بجميع الوسائل القانونية من أجل إلغاء "كل القيود المفروضة على المسلمين حسب اللوائح الحكومية المعمول بها والممارسات الإدارية، والمساواة التامة للمسلمين في كافة الحقوق: السياسية والمدنية والدينية".

وفي عام ١٩٠٦ أقر حزب "اتحاد المسلمين" ميثاقه لكنه لم يتمكن من إتمام التسجيل قبل انتخابات مجلس الدوما الأول، ولذلك اتخذ قرارًا بالمشاركة في الانتخابات على قائمة الحزب الدستوري الديمقراطي، وتم انتخاب ٣٦ ممثلا للمسلمين. وفي مجلس الدوما الثاني، الذي بدأ عمله في ٢٠ فبراير ١٩٠٧ مثّل المسلمين ٣٤ نائبا. تم انتخاب مجلس الدوما الثالث وفق قواعد مشددة للغاية، سيما حرمان الكازاخ وسكان تركستان[55] من حق التصويت، ولذلك كان هناك ١٠ نواب فقط ممثلين للمسلمين في مجلس الدوما.

أعطى العمل في مجلس الدوما ممثلي الشعوب الإسلامية فرصة للتعبير علنا عن موقفهم من السياسة الوطنية للحكومة الروسية، وحماية مصالح السكان المسلمين في مجالات التعليم والثقافة، وأصبح قناة فاعلة للتأثير الديمقراطي على السياسة الخارجية لروسيا.

---

[55] من أقدم مدن كازاخستان وتقع في جنوب البلاد.

في عام ١٩١٧ بلغ النشاط السياسي للمسلمين الروس ذروته، ففي هذا العام تحديدا عُقدت العديد من المؤتمرات لرجال الدين المسلمين والمعلمين والعسكريين. وقد مهّد نهج الحركات الاجتماعية الإسلامية تجاه المشكلات السياسية الداخلية بوضوح للمؤتمر الإسلامي الشامل لعموم روسيا، والذي أقيم في موسكو عام ١٩١٧. جدير بالذكر أن مجتمعات منطقة نهر الفولجا ومحافظات وسط أوروبا والقوقاز وآسيا الوسطى وكازاخستان وسيبيريا مثّلها في هذا المؤتمر ٧٧٠ مندوبا. وقد ساعد هذا التمثيل الواسع لأن يركز المؤتمر في قراراته على جميع الرغبات الأساسية لمسلمي روسيا في مجالات الحياة الدينية والثقافية والسياسية. شارك في المؤتمر تقريبا جميع الزعماء السياسيين البارزين للمسلمين الروس، مثل: موسى جار الله وزكي وليدي طوقان وجياز إسحاقي وشاكر محمديار وجومير تيريجول وجاليمردان توبتشاباشيف وعبيدالله الحاج وأحمد تساليكوف.

أعلنت حركة النساء المسلمات عن نفسها في هذا المؤتمر، وهي قد تشكلت تنظيميا وفكريا في مؤتمر النساء في أبريل ١٩١٧ في قازان. وفي المجلس الإسلامي تم انتخاب المندوبة سالمة يعقوب لرئاسة المؤتمر، ومخلصة بوبي، وكانت تُعرف على أنها القاضية السيدة الوحيدة من المسلمين الروس.

كان الهدف الرئيس للمؤتمر البحث عن صيغة لتقرير مصير الشعوب المسلمة. كان يرى بعض المندوبين النموذج الإقليمي مقبولا، والذي تبعا له يجب أن يكون الحكم الذاتي للأمة محصورا في منطقة معينة. وأيّد مندوبون آخرون منطقة حكم ذاتي قومية وثقافية، يحصلون عليها عن طريق المقاومة الفعالة لمحاولات تقسيم الأمة الواحدة لمسلمي روسيا. اتخذ المؤتمر قرارا توافقيا عن طريق الاعتراف بأن "شكل الدولة، الذي يحقق مصالح الشعوب الإسلامية بصورة كبيرة، هو الجمهورية الاتحادية الشعبية المبنية على

أساس مناطق الحكم الذاتي الإقليمية، وبالنسبة للشعوب التي ليس لها أراضي فعلى أساس منطقة حكم ذاتي قومية وثقافية ".

في الوقت نفسه حاول المسلمون إحياء كيان دولتهم، ففي ٢٢ يوليو عُقد المؤتمر الإسلامي العام الذي أعلن عن "منطقة حكم ذاتي قومية وثقافية للتتر الأتراك داخل روسيا وسيبيريا". وكان الجهاز التنفيذي لمنطقة الحكم الذاتي هو مجلس مكون من ١٢ شخصا برئاسة صدري مقصودي، وتم تشكيل هيئات تعليمية وروحية ومالية. قرر المجلس أن يكون مقره في مدينة أوفا، وفي نفس هذا الوقت انتهت انتخابات المجلس الوطني لمنطقة الحكم الذاتي، الذي بدأ عمله في ٢٠ نوفمبر. واختار المجلس الوطني صدري مقصودي رئيسا له، كما رأس الجهاز التنفيذي لمنطقة الحكم الذاتي – الهيئة الوطنية.

تم تحديد تاريخ ١ مارس ١٩١٨ لإعلان ولاية الفولجا والأورال. في ديسمبر ١٩١٧ تم مناقشة مشروع دستور الولاية، وذلك بالتوازي مع العمل على التوافق على حدودها الإقليمية. لكن السلطات السوفيتية لم تسمح بإنشاء كيانات وطنية لها شكل الدولة وترفض الاعتراف بالحكومة الجديدة والأيديولوجية الاشتراكية. تم حظر أنشطة هذه المنظمة في أبريل ١٩١٨.

المبحث الثالث:

الإسلام في الاتحاد السوفيتي

إرساء علاقات جديدة بين الدولة والإسلام (١٩٢٠-١٩٣٠)

بعد انتصار ثورة أكتوبر الاشتراكية اتخذت حياة المجتمع المسلم من الإمبراطورية الروسية السابقة أشكالًا جديدة. في بادئ الأمر حاولت السلطة السوفيتية جذب المسلمين كجزء فاعل في المجتمع، واستخدامهم كوسيلة للترويج للأفكار البلشفية والاشتراكية في بلدان الشرق، وكذلك إشراكهم في الصراع مع الأديان الأخرى والشرائح الاجتماعية من غير المسلمين.

ولتنفيذ هذه الخطط، تم تأسيس "مفوضية شؤون المسلمين" عام ١٩١٧كجزء من المفوضية الشعبية لشؤون القوميات[56]. تم تعيين مولانور فاخيتوف مفوضا لهذه المفوضية الإسلامية، وجالميجان إبراهيموف وشريف ماناتوف نائبين له.

أثناء ثورة أكتوبر نظّم المسلمون أنفسهم في عدد كبير من المنظمات المختلفة، وكان من بينها منظمات مثل المجلس الإسلامي لعموم روسيا، والمجلس العسكري الإسلامي لعموم روسيا، والبرلمان الوطني لمسلمي روسيا الداخلية وسيبيريا والكورولتاي[57] البشكيري وغيرها من المنظمات. وبأيدي أعضاء اللجنة الإسلامية المركزية عمل الحزب البلشفي على إقصاء أعداء السلطة السوفيتية هؤلاء من الساحة السياسية، وتم إنشاء "أجهزة السلطة البروليتارية" ممثلة في المفوضيات الإسلامية السوفيتية في المدن ومجلس فقراء الريف في القرى.

[56] جهاز حكومي لتنفيذ الخطة القومية للدولة واستمر عمله في الفترة من أكتوبر ١٩١٧ حتى أبريل ١٩٢٤.

[57] اجتماع شامل لطبقة النبلاء لتقرير أمور الدولة عند الشعوب ذات الأصول التركية، مثل: القيرغيز والبشكير والتتر وتتر القرم وغيرهم، وكان إلى حد ما النظير للبرلمانات الأوروبية.

بدعم من اللجنة الإسلامية المركزية تم مساندة جيش العمال والفلاحين الأحمر[58]، حيث تم إنشاء أفواج اشتراكية إسلامية في أوفا وقازان، وكتائب من التتر والبشكير في قازان وموسكو، ووحدات منفردة من مسلمي الجيش الأحمر في أستراخان وبيرم وغيرها من مدن روسيا. وسار إرساء العلاقات مع شعوب القوقاز بوتيرة أبطأ نتيجة بعد المسافة الجغرافية. وأعاق ضعف وسائل الاتصال من إنجاز العمل "بصورة أسرع وأفضل". وافتتح قسم المناطق الجبلية، وقسم لمنطقة جنوب القوقاز وقسم لتركستان وقسم للقرم التابعين للمفوضية الإسلامية المركزية. ووجّهت كل جهود اللجنة الإسلامية المركزية والأقسام التي أنشئت حديثا لإلهاء مسلمي القوقاز وآسيا الوسطى وشبه جزيرة القرم بالفكرة العامة للصراع الطبقي، ولتحقيق هذا الهدف ظهر مرة أخرى نشاط جهاز الدعاية. لكن لم يستطع الأدب والإعلانات المطبوعة دوما الوصول إلى مدن وقرى القوقاز. وسرعان ما انهارت خطط اللجنة الإسلامية المركزية تماما، حيث انفصل قسم المرتفعات (المرتفعات الجبلية) إلى وحدة مستقلة تابعة للمفوضية الشعبية لشؤون القوميات.

في نفس هذا الوقت تمت محاولات لإعادة تنظيم مدرسة إسلامية بروح العصر. وفي يونيو ١٩١٨ عُقد المؤتمر الثالث للطلاب المسلمين من عموم روسيا، الذي "قبل البرنامج السياسي" للسلطة السوفيتية. وفي كل مكان تم افتتاح دورات تعليمية لإعداد المدرسين، الذين يتم إرسالهم إلى المدارس الإسلامية. وبشكل موازٍ تم إنشاء إدارة شعبية تابعة لقسم التعليم بالمفوضية الشعبية لشؤون القوميات، وأُسند إليها مهمة "التفسير العلمي لجميع قضايا التربية لدى المسلمين"، وكذلك "المعالجة النظرية لقضايا الجامعة الإسلامية والمتحف الشرقي والمكتبة الإسلامية الأساسية المركزية".

---

[58] اسم القوات المسلحة في الفترة ١٩١٨-١٩٢٢، ثم اسم قوات المشاة في الفترة ١٩٢٢ – ١٩٤٦، ومن عام ١٩٤٦ تغير اسمه للجيش السوفيتي.

لم يكتمل تنفيذ الخطط الضخمة لتحويل حياة المجتمع الإسلامي بسبب الحرب الأهلية. أصبحت جميع أراضي منطقة جنوب الأورال ومنطقة الفولجا وأجزاء سيبيريا المأهولة بالسكان المسلمين مسرحا للعمليات الحربية. وتفاقم الوضع لأن جزءا كبيرا من رجال الدين كان في صف الأعداء السياسيين للنظام السوفيتي.

سمحت سياسة "الشيوعية الحربية[59]" بعمليات قمع جماعية للسكان المحليين وخاصة من قبل وحدات الجيش المكونة في مناطق أخرى. وأدت الإجراءات السوفيتية مثل إلغاء المحاكم الشرعية والمدارس الدينية، ومصادرة الأراضي من المساجد، واضطهاد رجال الدين إلى ترهيب المسلمين.

ومع تنفيذ هذه القرارات بشكل قسري في مناطق الانتشار التقليدي للإسلام زاد الاستياء بين المسلمين المؤمنين. حتى الشيوعيون منهم كانوا مع الحفاظ على التقاليد الراسخة وطريقة حياة شعوبهم، التي ترتكز على المبادئ الإسلامية. في مارس ١٩١٩ قرر مكتب المنظمة الشيوعية الإسلامية لحزب "جوميت[60]" برئاسة ناريمان ناريمانوف، وغازنفار موسابيكوف، وسلطان أفندييف وغيرهم أن يوصي الخلايا القاعدية بتنفيذ قرارات مجلس مفوضي الشعب[61] "بشأن الفصل بين الكنيسة والدولة" بشكل انتقائي و"بعناية حتى لا يؤثر على المشاعر الدينية" للسكان.

---

[59] السياسة الداخلية للدولة السوفيتية إبان الحرب الأهلية ومن سماتها: مركزية إدارة الاقتصاد، وتأميم الصناعات الكبيرة والمتوسطة وحتى الصغيرة، واحتكار الدولة للكثير من المنتجات الزراعية.

[60] الحزب الاشتراكي الديمقراطي الإسلامي وكلمة "جوميت" أصلها أذربيجاني وتعني الطاقة وهو أول حزب اشتراكي ديمقراطي في العالم الإسلامي.

[61] هو اسم حكومة روسيا السوفيتية في الفترة من ١٩١٧ إلى ١٩٤٦.

كان هذا الفهم للمشكلة موجودا لدى الشيوعيين البراجماتيين والقادة العسكريين. فقد أرسل كل من ميخائيل فرونزه وسيرجي كيروف برقيات لفلاديمير لينين بهذا المعنى، مؤكدين أنهم يرون أن الحزب سمح بأخطاء كبيرة في الشأن الديني، بما في ذلك تجاه المسلمين.

صاغ ميرسعيد سلطان أحد قادة الحركة الوطنية للشعوب المسلمة في روسيا وجهات نظره حول بناء الدولة ومحاربة الدين والثورة في الشرق، والتي أصبحت فيما بعد الأساس النظري لمفاهيم الاشتراكية الإسلامية والشيوعية. عند تحديد موقفه من قضية الدعاية المناهضة للدين انطلق من خصائص السكان التتر-البشكير والإسلام، وظهر تأثير الثورة الاجتماعية على تقسيم رجال الدين المسلمين إلى "الحُمر" و"البيض". وفي مؤلفه المعنون "أساليب الدعاية المناهضة للدين بين المسلمين" كتب جالييف "يجب أن تعترفوا صراحة أنكم لم تحاربوا أي دين كما حاربتم هذا الدين، وأن تعلنوا أنكم تقومون بالدعاية لأفكاركم الإلحادية، وتمارسون حقكم الطبيعي في ذلك".

في السنوات الأولى للسلطة السوفيتية وتحت تأثير التغيرات الاجتماعية العميقة تم تقسيم رجال الدين المسلمين إلى "السود" و "الحمر". وأولئك الذين يسمون بالملالي (الأئمة والشيوخ) "الحمر" كانوا موالين للدولة السوفيتية، وذلك لتجنب المواجهة العقيمة مع السلطة الجديدة وإبقاء السكان تحت نفوذهم.

لكن ستالين والمحيطين به اتخذوا موقفا مغايرا. ففي يونيو ١٩٢٣ عُقد الاجتماع الرابع للجنة المركزية للحزب، حيث تم إدانة أدنى انحراف عن خط الحزب في المسألة القومية. على هذا النحو ترك "ترويض الحركة الوطنية"، الذي حدث في الاجتماع الرابع للجنة المركزية للحزب الشيوعي الثوري عام ١٩٢٣، تداعيات خطيرة على الدين أيضا.

كانت إجراءات ستالين القمعية بمثابة "اختبار"، وقضت على أي مكان للدين في إطار السياسة القومية. أصبحت "سلطانجاليفشينا[62]" عنوانا لإدانة أنصار التنمية المستقلة للتتر والشعوب التركية الأخرى في الاتحاد السوفيتي، ولذلك تم الإعلان عن أنهم "منادون بالوحدة الإسلامية". وألقي القبض على سلطان جالييف ورفاقه، وخضعوا للمحاكمة، وفي أواخر عام ١٩٣٠ أعدم كثير منهم رميا بالرصاص.

في عام ١٩٢٢ تشكلت سياسة السلطات، التي كانت موجهة للسيطرة الصارمة على رجال الدين ومؤسساتهم. والحريات الاقتصادية، التي مُنحت في فترة السياسة الاقتصادية الجديدة[63]، لم تصحبها بالضرورة حريات سياسية. أدت المقاومة المسلحة ضد السوفييت في آسيا الوسطى وشمال القوقاز، والخوف من تحالف سياسي للدول الإسلامية، حتى ولو تحت شعارات شيوعية إلى سعى السلطة المركزية للسيطرة على الهيئة الروحية المركزية لمسلمي روسيا[64]، وعدم السماح بتحويل مؤتمرات المسلمين لمنتديات لخصومها السياسيين.

كانت قضية تدريس الدين هي المشكلة المستعصية بالنسبة لهيئات الحزب في مناطق الانتشار التقليدي للإسلام. وأثار الإغلاق الإداري الجبري للمدارس الدينية رد فعل سلبي للغاية لدى السكان المسلمين، وكانت هذه القضية دائما حاضرة في الشكاوى والطلبات. وفي هذا الشأن اتخذت أجهزة الحزب والدولة على مدار عدة سنوات قرارات متناقضة ومتضاربة، مغيرة في بعض الأحيان تكتيكاتها تحت ضغط من وقائع موضوعية.

---

[62] يقصد بها أفكار سلطان جالييف وهي قريبة من الاشتراكية الإسلامية.

[63] "السياسة الاقتصادية الجديدة" هو اسم السياسة الاقتصادية لروسيا السوفيتية في عشرينيات القرن الماضي، وجاءت بديلا لسياسة "الشيوعية الحربية"، وتم إقرارها في المؤتمر العاشر للحزب الشيوعي في ١٤ مارس ١٩٢١.

[64] هو نفسه مجلس أورينبورج الإسلامي ولكن تغير اسمه للهيئة الروحية المركزية لمسلمي روسيا في عام ١٩١٧.

وتوصل قادة الأقاليم تدريجيا إلى استنتاج مفاده أن مواجهة الإسلام يمكن أن تتم فقط بالطرق الثقافية، ولكن هذا الموقف لم يجد قبولا لدى السلطة المركزية.

بسبب الأوضاع المضطربة السائدة في أوساط المسلمين في مجال محاربة الدين ناقش المكتب السياسي للجنة المركزية مرارا القضية في اجتماعاته، وعلى وجه الخصوص، في ١٨ أغسطس ١٩٢٧ كان هناك جلسة استماع للمكتب السياسي بشأن قضية "إجراءات مقاومة الحركة الدينية الإسلامية". في القرار، الذي اتُخذ من قبل المكتب التنظيمي للجنة المركزية (في أبريل ١٩٢٨)، كان هناك مجموعة واسعة من التدابير لمقاومة نمو الحركة الإسلامية. وبالأخذ في الاعتبار أن السبب في زيادة عدد الجماعات الإسلامية التابعة للمساجد هو عدم وجود تطوير كاف في المدارس السوفيتية في الجمهوريات القومية، قال المكتب التنظيمي "إن أساس محاربة الحركة الدينية بشكل عام، وكذلك الجماعات الدينية يجب أن يكون سلسلة من الأنشطة الثقافية لتحسين مدارسنا السوفيتية... ".

وتم اتخاذ إجراءات وفقا للقواعد الجديدة لحذف مصطلح "المدارس الدينية" من جميع الوثائق وتوفير فقط تعريف جماعي للأطفال بأساسيات الدين وفقا لحدود معينة. وتم تصنيف مناطق كشمال القوقاز وآسيا الوسطى على أنها المناطق الأكثر صعوبة في تنفيذ الإجراءات المتخذة.

وبالإضافة إلى الإجراءات الإدارية المقيدة والفاعليات ذات الطابع الثقافي قرر المكتب التنظيمي في أبريل ١٩٢٨ "تكثيف مكافحة استخدام رجال الدين المسلمين للمؤتمرات والدورات ومعهد الدعاة المسافرين في أغراض مضادة للسوفيتية، وحظر فرض الضرائب النقدية والعينية التي تجمعها الجماعات الدينية من السكان". وكان التعامل التمييزي والمتشدد مع المناطق الإسلامية ذو طبيعة عرضية، ومع ذلك يركز بشكل عام على تنفيذ الهدف الاستراتيجي وهو القضاء على الدين، والمهم هو ألا يكون هناك

اضطرابات كبيرة او اعتراضات من "جموع المسلمين المتعصبين". وعلى خلفية تعزيز الإدارة، وتشديد النظام ازدادت القيود المختلفة في مجال العلاقات الدينية. وتمثل التشريع النهائي في اتخاذ قرار من قبل اللجنة التنفيذية المركزية لمجلس مفوضي الشعب لجمهورية روسيا السوفيتية الاتحادية الاشتراكية بشأن "الجمعيات الدينية" بتاريخ ٨ أبريل ١٩٢٩، والذي - مع بعض التعديلات - ظل معمولا به حتى عام ١٩٩٠.

في مايو ١٩٢٨ قدم المكتب السياسي للجنة المركزية اقتراحا إلى رئاسة اللجنة التنفيذية المركزية للاتحاد السوفيتي بـ "إلغاء قانون اللجنة التنفيذية المركزية بشأن المدارس الدينية الإسلامية، وكان الإلغاء بناء على اقتراح من الجمهوريات القومية". ولكن رجال الدين المسلمين لم يخططوا للتخلي عن مواقفهم. ففي شهري أكتوبر ونوفمبر ١٩٢٦ عُقد مؤتمر لرجال الدين في أوفا، والذي اقترح توسيع الحقوق في مجال العقيدة.

على الرغم من الولاء الظاهري من قبل الهيئة الروحية المركزية لمسلمي روسيا، إلا أنه كان واضحا أنها لم تكن راضية عن سياسة الدولة السوفيتية، لاسيما وأن خلف هذه المنظمة كانت تقف قوة كبيرة، في عام ١٩٢٧ ضمت الهيئة الروحية المركزية لمسلمي روسيا ١٤٨٢٥ من الرعايا، الأمر الذي وصل للسلطات، التي كانت تعتبر أي تجمع مركزا لمقاومة سياسة "الثورة من الأعلى[65]".

في عام ١٩٢٦ حضر مؤتمر رجال الدين ٤٣٧ مندوبا و ٢٦٥ ضيفا (١٠٥من بشكيريا، ٧٨ من تترستان، ١٣٢ من كازاخستان، ٦٣ من المحافظات الداخلية لروسيا الاتحادية الاشتراكية السوفيتية، ٢١ من إقليم الأورال، ١٥ من سيبيريا، ٥ من

---

[65] نظرية تشير إلى أن التغيرات السياسية والاجتماعية الكبرى تأتي عن طريق الصفوة وتُفرض على عامة الشعب.

أوزبكستان، ٣ من قرقلباكستان[66]، ١ من شبه جزيرة القرم، ١ من شمال القوقاز، ١ من مسلمي الصين). دق الامتداد الجغرافي الواسع لمشاركي المؤتمر ناقوس خطر لدى السلطات. ونجحت الهيئة السياسية الموحدة[67] في اتخاذ القرارت المرجوة والتأثير على المسائل المتعلقة بشؤون الموظفين، ولكن قيادة الهيئة الروحية المركزية لمسلمي روسيا، كما ذكرنا من قبل، حافظت على تشكيلها المنتخب من قبل المجلس الوطني.

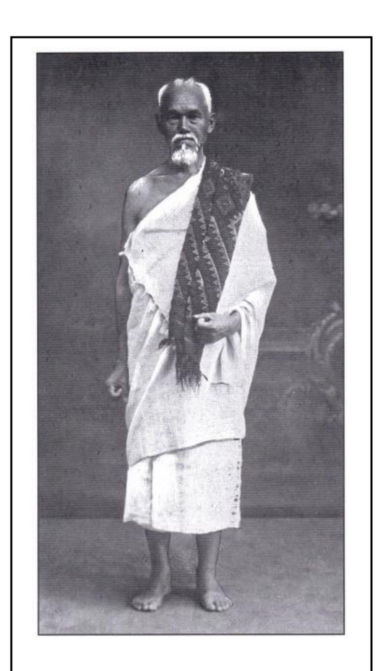
تميزت نهاية العشرينيات بزيادة عدد وكثافة وعنف الحملات الجماعية المناهضة للدين. اكتسبت الحملات التي كانت تتم بانتظام ضد الاحتفال بعيد الميلاد وعيد الفصح، والفاعليات المعادية للإسلام في أعياد الفطر والأضحى في آسيا الوسطى والقوقاز ومنطقة الفولجا، وكذلك محاربة الوثنية لدى الماريين والتشفاش والأودمورتيين طابعا عدائيا قمعيا. شكلت تدريجيا المنظمات واسعة الانتشار لاتحاد الملحدين المحاربين وجمعية "دخليار" بالنسبة للتتر والبشكير في العاصمة والأقاليم بنية فريدة من نوعها لمحاربة الدين.

---

[66] جمهورية ذات حكم ذاتي في شمال غرب أوزبكستان.

[67] هيئة تابعة لمجلس مفوضي الشعب (الحكومة).

كان اتحاد الملحدين (تغير اسمه منذ عام ١٩٢٩ إلى اتحاد الملحدين المحاربين) بمثابة القوة الضاربة في السياسة القمعية والقسرية للدولة في مجال الدين، فقام بتنظيم "خطط خمسية إلحادية" ومسابقة اشتراكية في الدعاية للإلحاد والتضييق على الأعياد الدينية وإغلاق الكنائس والمساجد، إلخ. وبحلول نهاية العشرينيات كانت الآلية الفعالة هي الزيادة الحادة في الضرائب المفروضة على رجال الدين، المصحوبة بالحرمان من الحقوق الانتخابية. وأصبح ما يسموا بـ "المحرومين[68]" فيما بعد أهداف رئيسية للقمع أثناء العمل الجماعي[69]. وصاحب عمليات الترحيل الجماعي لرجال الدين إغلاق للمساجد وتدمير للمؤلفات المكتوبة باللغة العربية. وبشكل يائس، حث المفتي رضا فخرالدين في خطاب إلى جميع أعضاء الهيئة الروحية المركزية لمسلمي روسيا ومجلس العلماء على إغلاق المجلس، والذي في رأيه من شأنه أن يجبر السلطات السوفيتية على تغيير موقفها تجاه الدين.



رضا فخر الدين (١٨٥٩ – ١٩٣٦)
في ملابس الإحرام لرحلة الحج

في العشرينيات والثلاثينيات قامت قيادة البلاد بأنشطة موجهة للحد من الحقوق المدنية لرجال الدين، والتي كانت ظاهرة في السياسة الضريبية التمييزية ضد رجال الدين، وتحجيم ومنع التعليم الديني، والحرمان من الحق في التصويت، وحظر توزيع الكتب

[68] التسمية غير الرسمية لمواطني الاتحاد السوفيتي المحرومين من حقوقهم الانتخابية، وذلك في الفترة ١٩١٨-١٩٣٦.

[69] العمل الجماعي هو عملية تجميع الاقتصاد الزراعي الفردي فيما يعرف بالمزارع الاشتراكية "الكالخوز".

الدينية. بالإضافة إلى ذلك طُبقت على رجال الدين المسلمين إجراءات ملاحقة إدارية وجنائية، وفي فترة العمل الجماعي صادرت الدولة ممتلكات كثير منهم.

بعد وفاة المفتي رضا فخرالدين في أبريل ١٩٣٦ برزت قضية انتخاب مفتي جديد، ووفقا لميثاق الهيئة الروحية المركزية لمسلمي روسيا يجب أن يتم ذلك في مؤتمر، ولكن تم تعيين عبدالرحمن رسوليف مفتيا، وهو ما يعني في الواقع خضوع هيئة الإفتاء للسلطات.

ونتيجة للإجراءات المتخذة منذ عام ١٩٣٧ تم إغلاق ٨٧٪ من المُحتسبات، ١٠ آلاف مسجد من أصل ١٢ ألف، وحُرم من ٩٠ إلى ٩٧٪ من الملالي والمؤذنين من أداء العبادة، وفي تترستان لم يعد هناك سوى ١٣٧٥ منظمة دينية مسجلة من إجمالي ٢٥٥٠ كانت موجودة قبل الثورة. وفي الوقت الذي انخفض فيه عدد المنظمات الدينية المسجلة في جمهورية روسيا السوفيتية الاتحادية الاشتراكية إلى ٣٥%، وفي الاتحاد السوفيتي إلى ٢٧%، فقد انخفضت في تترستان إلى ٥٤%. وبحلول عام ١٩٣٦ بلغ عدد أماكن العبادة التي تم إغلاقها في جمهورية داغستان السوفيتية الاشتراكية ذات الحكم الذاتي نحو ٥٠%، وبلغت النسبة في جمهورية قبردينو- بلقاريا السوفيتية الاشتراكية ذات الحكم الذاتي ٥٩%، وفي جمهورية بشكيريا السوفيتية الاشتراكية ذات الحكم الذاتي بلغ عدد أماكن العبادة المغلقة ٦٩%.

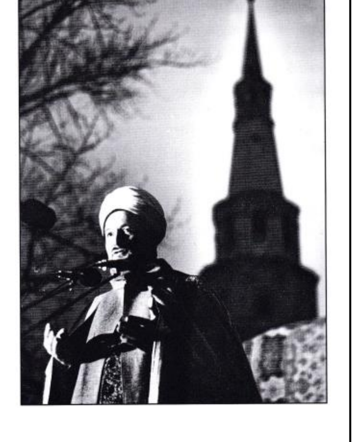
الإسلام ورجال الدين المسلمين في الاتحاد السوفيتي (١٩٤٠-١٩٨٠)

مع بداية الحرب العظمى[70]، ونتيجة للعمل الأيديولوجي الضخم من الدعاية الإلحادية، وبعد عدة حملات على مستوى كامل أراضي الاتحاد السوفيتي لإغلاق أماكن العبادة أصبح موقف الإسلام في الاتحاد السوفيتي بالغ الضعف. في هذه الفترة في الاتحاد

[70] الاسم الروسي لما يعرف باسم "الحرب العالمية الثانية".

السوفيتي تم إغلاق المحاكم الشرعية، ولم يعد هناك وجود فعلي لشبكة المدارس الدينية سواء التقليدية أو "الجديدية".

غير أنه في منتصف الأربعينيات شهدت السياسة الدينية للدولة السوفيتية تحررا ملحوظا. ويرجع ذلك بشكل كبير إلى الموقف الوطني، الذي اتخذته المنظمات الدينية في الحرب الوطنية العظمى، حيث قام المؤمنون بدور فعال في الأعمال الحربية، وفي جمع المواد لتلبية احتياجات الجيش الأحمر.



المفتي طلعت تاج الدين يلقى خطبة عيد الفطر

في الوقت نفسه، لم يكن ممكنا في ظل ظروف الحرب وجود رقابة صارمة، كالتي فرضها النظام الستاليني سابقا على جميع جوانب الحياة العامة، بما في ذلك الحياة الروحية، وقمع أي مظهر من مظاهر عدم الامتثال للطريقة السوفيتية في الحياة والتفكير. ولذا فليس من المستغرب أنه في هذه السنوات بدأ الكثير من المؤمنين في الاتحاد السوفيتي التصريح بانتمائهم لديانة معينة، وزيارة أماكن العبادة علنا وممارسة الطقوس، وهو ما كان يعني عمليًا تجاهل العديد من المحظورات والقيود.

وكان الوضع الدولي أحد الاسباب التي أدت إلى تعديل السياسة الدينية. كان أمام الاتحاد السوفيتي مهمة كبيرة وهي فتح جبهة ثانية، وفي ظل هذه الظروف كان إضفاء الطابع الديمقراطي على بعض جوانب حياة المجتمع السوفيتي يعني التأثير بشكل إيجابي على المفاوضات مع الحلفاء. أكد تشرشل وروزفلت على ستالين أن انتشار معلومات عن الحرية الدينية في الاتحاد السوفيتي قد تحول الرأي العام في بلدانهم لصالح الاتحاد

السوفيتي. لذلك ليس من قبيل الصدفة أن الاعتراف الرسمي من السلطات بالدور الوطني الذي لعبته المنظمات الدينية والمؤمنين جاء عشية محادثات القمة في طهران.

في سبتمبر عام ١٩٤٣ التقى جوزيف ستالين برؤوس الكنيسة الأرثوذكسية الروسية، وتم خلال اللقاء اتخاذ قرارات شكلت مرحلة جديدة في العلاقات بين الدولة والدين. وظهر ذلك عمليا في تخفيف التشريعات الضريبية المفروضة على رجال الدين المسجلين، وإعفائهم من التعبئة العسكرية، ومنح المنظمات الدينية الحقوق المحدودة للكيانات الاعتبارية، وغيرها من أنشطة الدولة.



المؤتمر التتري العالمي الأول. وفي الصورة المشاركون في جلسة التاريخ والدين

في عام ١٩٤٣ بالإضافة إلى الهيئة الروحية المركزية لمسلمي روسيا الموجودة بالفعل (ومقرها مدينة أوفا) تم تشكيل ثلاث هيئات روحية أخرى للمسلمين – في شمال القوقاز (ومقرها مدينة بويناكسك) وجنوب القوقاز (ومقرها مدينة باكو)، وآسيا الوسطى وكازاخستان (ومقرها مدينة طشقند). وينبغي أن يُنظر إلى هذا الحدث كجزء من حملة أيديولوجية أطلقتها القيادة السوفيتية للتأثير على المشاعر الوطنية المدنية للسكان وتعبئتها في ظروف الحرب.

اكتسبت الهيئة الروحية لآسيا الوسطى وضع الزعيم غير الرسمي بين الهيئات الروحية للمسلمين سالفة الذكر، وكان في طليعة تلك الهيئات المدرسة الإسلامية العليا الوحيدة على أراضي الاتحاد السوفيتي وهي مدرسة مير عرب (في مدينة بخارى). وفي هذا الصدد بدأت السلطات تنظر للهيئات الروحية الأخرى باعتبارها هيئات ثانوية تمثل هوامش "الإسلام السوفيتي".

في مايو ١٩٤٤ تأسس مجلس الشؤون الدينية التابع لمجلس مفوضي الشعب، وكانت مهمة الجهاز الجديد تحقيق التواصل بين الحكومة والمنظمات الدينية. وتشمل مهامه إخبار المؤسسات الحزبية والحكومية في الوقت المناسب بوضع المنظمات الدينية ومواقفها وأنشطتها في الأقاليم، وعمل تقرير عام وتقارير إحصائية تصف مستوى النشاط الديني للسكان. وكان يدير المجلس مفوضون يعملون في المقاطعات والأقاليم، والجمهوريات الاتحادية وذات الحكم الذاتي.

في عام ١٩٤٨ - وللمرة الأولى منذ ٢٢ عاما - عُقد مجلس الهيئة الروحية المركزية لمسلمي روسيا (والذي أعيد تسميته بالهيئة الروحية لمسلمي الجزء الأوروبي من الاتحاد السوفيتي وسيبيريا)، والذي كان مجرد انعقاده في إطار الدولة السوفيتية يعد أمرا استثنائيا في تاريخ العلاقات الدينية للدولة. ومع ذلك فإن القرارات التي اتُخذت في المؤتمر أكدت فقط على القيود المفروضة على حقوق المؤمنين ورجال الدين في الفترة ١٩٢٠-١٩٤٠. وجُردت الهيئة الروحية من صلاحيات مثل الحق في تنظيم المدارس الدينية ودورات إعداد رجال الدين، وتشكيل مُحتسبات جديدة، وعمل سجلات مواليد، وغيرها من الأمور. وبقي ضمن اختصاصاتها المهام الدينية، وأوكل إليها عمل حصر للمساجد ودور العبادة. لم يسمح الوضع السياسي في تلك الفترة، حتى مع تحرير علاقات الدولة بالدين، بإثارة قضية استعادة حقوق المؤمنين ورجال الدين.

تزامن انتهاء السياسة المتساهلة قصيرة الأجل للدولة السوفيتية تجاه الدين مع نهاية فترة ما بعد الحرب. في عام ١٩٤٨ أرسل مجلس الشؤون الدينية لمفوضيه تعميما يقضي بوقف إعطاء موافقات على طلبات تسجيل الطوائف الدينية. في عام ١٩٤٩ لم يتبقَ في الاتحاد السوفيتي سوى ٤١٥ مسجد، وتناقص العدد إلى ٣٥١ في عام ١٩٥٢، ثم إلى ٣٠٥ في عام ١٩٦٥.

في منتصف خمسينيات القرن العشرين وأثناء الانفراج السياسي العام كان من حق المؤمنين أن يأملوا في سياسة أكثر ولاءً للدين. وساعد في ذلك صدور قرار اللجنة المركزية للحزب الشيوعي بتاريخ ١٠ نوفمبر ١٩٥٤ بشأن "الأخطاء في الدعاية العلمية الإلحادية بين السكان"، والذي تسبب في موجة جديدة من طلبات المؤمنين لتسجيل الطوائف الدينية.

غير أن الدين تعرض لموجة جديدة من الهجوم منذ عام ١٩٥٨، وذلك مع إعلان خروشوف مهمته في "القضاء على الدين باعتباره من بقايا الرأسمالية في أذهان الناس". وقد أعلن الأيديولوجيون عن "أزمة الدين" كظاهرة سائدة على الصعيد الديني. في ظل هذه الظروف كانت المهمة الرئيسية هي مكافحة الجماعات غير المسجلة، ومجموعات المؤمنين ورجال الدين، حيث بات واضحا أنه لم يكن هناك ابتعادا ملحوظا للمؤمنين عن المسجد أو انحسارًا لنشاط رجال الدين. والواقع أن كثيرا من طقوس الإسلام، وخاصة في المناطق الريفية، كانت منتشرة جدا، ففي عام ١٩٦١ في تترستان كان ٤٨% من المسلمين يبعون الطقس الإسلامي لتسمية المولود، و٨٦,٦% قاموا بطقوس النكاح وفقا لتعاليم الإسلام، و ٩٢% قاموا بطقوس تشييع الجنازة على أساس إسلامي.

من أجل تصحيح الوضع القائم، أنشئت في عام ١٩٦١ في أقاليم وجمهوريات الاتحاد السوفيتي مجموعات مساندة اللجان التنفيذية لمجالس نواب المقاطعات والمدن، التي تعمل على الالتزام بالتشريعات الخاصة بالطوائف الدينية (التي تحولت في عام ١٩٦٦

للجان تسهيل مراقبة التشريعات الخاصة بالطوائف الدينية). وكانت ملتزمة بالقيام بالرصد اليومي والمستمر للمجتمعات والجماعات الدينية.

في عام ١٩٦١ تمثلت واحدة من أولويات جماعات المساندة في حصر المنظمات الدينية ورجال الدين. واستنادا إلى نتائجه ففي الجزء الأوسط فقط من الاتحاد السوفيتي تم الكشف عن أكثر من ٢٠٠٠ منظمة دينية إسلامية تعمل بشكل غير رسمي، فضلا عن أكثر من ٢٥٠٠ إماما يعملون بشكل غير قانوني، في حين أن المسجلين كانوا فقط ٣٩٥.

اكتسب المبدأ العام في الإسلام المعروف ب "التقية" أهمية خاصة خلال سنوات السلطة السوفيتية، والذي كان يسمح للمسلم بإخفاء معتقداته الحقيقية حفاظا على دينه، ويبقى بذلك خارج تأثير الأيديولوجية الشيوعية، وكذلك كان هناك أهمية كبرى لقواعد تنفيذ الشعائر الإسلامية، والتي، على عكس الشعائر الأرثوذكسية، كان من الممكن أن تُنفذ في المنازل والبيوت. لذلك ربما كان العامل الأكثر أهمية في بقاء الإسلام في ظل الأيديولوجية الإلحادية هو وجوده في حياة كثير من الأسر، حيث كان الشباب يستطيع التعرف على الإسلام من خلال الجيل الأكبر سنا.

بعد خروشوف بدأ استخدام أساليب أقل راديكالية في السياسة الدينية للدولة. خلال هذه الفترة عملت السلطة بنشاط على تحفيز مشاركة رجال الدين في الحياة العامة للبلاد من خلال تنظيم العديد من اللقاءات لرجال الدين مع محاضري جمعية "المعرفة[71]" حول قضايا السياسة الداخلية والخارجية للدولة السوفيتية. شارك رجال الدين المسلمين بفاعلية – مثلهم مثل أتباع الديانات الأخرى - في جمع الأموال لصندوق السلام، ولجمعية حماية المعالم الأثرية ولقسم العلاقات الإسلامية الخارجية. وق لقيت هذه الأنشطة من المنظمات الدينية دعما من السلطات. لذلك، في عام ١٩٧٧ مُنح رجال

---

[71] جمعية تنويرية أنشئت عام ١٩٤٧.

الدين من جميع الطوائف الدينية المسجلة في البلاد شهادات تقدير للمشاركة الفعالة في عمل صندوق السلام السوفيتي.

أصبح واضحا الاتفاق الضمني بين السلطات والمنظمات الدينية، الذي بموجبه ارتضت الشخصيات الدينية تماما بـ "الحريات" القائمة، أما السلطات فتتساهل مع ذاك المستوى من التدين للسكان، الذي كان موجودا في ذلك الوقت.

في منتصف سبعينيات القرن العشرين حدثت انفراجة في العلاقات الدولية، وكان أحد مظاهرها بدء سريان العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية عام ١٩٧٦ في الاتحاد السوفيتي. وفيما يخص مواد العهد المتعلقة بالمجال الروحي، تم الإعلان عن حرية اعتناق أي دين واتباعه إما منفردا أو بالاشتراك مع آخرين. لكن في الواقع، وكما في السابق، انحصر الأمر في حرية وهمية.

تميزت نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات بتعزيز دور الإسلام في العلاقات الدولية. وأضر الغزو السوفيتي لأفغانستان والحرب ضد المعارضة الإسلامية بالعلاقة بين السلطات والمسلمين. خلال هذه الفترة قسمت الدولة بشكل واضح الإسلام إلى فئتين: الإسلام التقدمي ويضم رجال الدين الإسلامي المحبين للسلام في الاتحاد السوفيتي، والفئة الثانية تضم رجال الدين الرجعيين في الخارج. سمح وجود هذه الفئة الأخيرة للحكومة ببث الخوف من الإسلام ككل في المجتمع السوفيتي عن طريق خلق موقف مسبق لدى الناس تجاهه باعتباره أحد أسباب زعزعة الاستقرار في الخارج والخطر المحتمل في الداخل.

ارتبطت طرق وآليات السياسة الدينية للدولة السوفيتية في الفترة ١٩٤٠-١٩٧٠ بالاتجاهات السياسية العامة السائدة في البلد في هذه الفترة أو تلك. وعلى الرغم من اختلاف الأساليب المستخدمة للتأثير على الدين ظل هدف الدولة نفسه دائما وهو "القضاء التام على الخرافات الدينية في عقل الشعب السوفيتي". ومع ذلك، فإن العلاقة

بين الدولة السوفيتية والإسلام تشير إلى أنه على الرغم من كل القمع والإذلال الذي عانى منه المؤمنون، فإن الإسلام تمكن من الحفاظ على بعض مواقفه، وكان له تأثير كبير على جزء بعينه من سكان البلاد.

المبحث الرابع:

الإسلام في تترستان المعاصرة

الإسلام في تترستان المعاصرة

بداية من تسعينيات القرن العشرين شهد الإسلام في روسيا عصر النهضة. فإذا كان في عام ١٩٩١ في روسيا ٨٧٠ منظمة دينية، فقد زادت إلى حوالي ٥٠٠٠ منظمة بحلول عام ٢٠٠٠. وجدير بالذكر أنه منذ بداية عام ٢٠٠٨ تعمل في تترستان حوالي ١٢٠٠ جماعة إسلامية، ووفقا لنتائج أبحاث أعوام ١٩٩٠-١٩٩١، فإن ٦٧% من التتر، الذين يعيشون في مناطق مختلفة من روسيا، يعتبرون أنفسهم مؤمنين. ويتأكد نمو التدين أيضا عن طريق الدراسات التي أجريت في تترستان، والتي وفقا لبياناتها، فإن ٣٤,١% ممن جرى استطلاع رأيهم في عام ١٩٩١ وصفوا أنفسهم بالمؤمنين، في حين أنه في عام ١٩٩٤ ارتفعت النسبة إلى ٦٦,٦%، وفي عام ١٩٩٧ بلغت ٨١%، وفي عام ٢٠٠١ أصبحت ٨٥%.

كان واحدا من خصائص النهضة الإسلامية ظهور العديد من الإدارات والمراكز الروحية. إذا كان في عام ١٩٩١ كان هناك هيئتان روحيتان فقط، ارتفعت في عام ١٩٩٢ إلى خمسة عشر (حينها ظهرت الهيئة الروحية لمسلمي جمهورية تترستان)، وفي عام ١٩٩٥ صارت ٣٦، وفي عام ١٩٩٧ بلغت ٤٨، وفي عام ٢٠٠٧ زادت إلى ٥١. ويرجع ذلك إلى العديد من العمليات التي حدثت في روسيا مثل حصول أقاليم عديدة على حكمها الذاتي، بما في ذلك تترستان، وتشكل حركة وطنية قوية نسبيا، فضلا عن عوامل أخرى مساعدة.

بالتدريج تحولت الهيئة الروحية لمسلمي جمهورية تترستان، التي نشأت في عام ١٩٩٢، إلى مركز لتوحيد الطوائف المسلمة في البلاد. وقد شكل المؤتمر الدوري للمسلمين، الذي عُقد في فبراير ١٩٩٨، مرحلة جديدة في عمله، وفي المؤتمر تم تجديد فريق الإدارة بالكامل. وتم إقرار ميثاق جديد للهيئة الروحية لمسلمي جمهورية تترستان ينص على مبادئ ديمقراطية لإدارة الطوائف المسلمة في الجمهورية، وأخيرا، حدث توحيد تنظيمي للهيئتين الروحيتين العاملتين على أراضي تترستان.



مؤتمر عالمي إحياءً لذكرى مرور ١١٠٠ عام على إسلام التتر (بلغاريا الفولجية)

يشير النمو السريع في عدد المؤسسات المسلمة والبناء الجماعي للمساجد إلى الحاجة الماسة إلى إعداد رجال الدين المسلمين، الأمر الذي يقتضي إنشاء تعليم ديني. ظهرت أول المؤسسات التعليمية الإسلامية في روسيا في عام ١٩٩٢، وفي عام ١٩٩٣ زادت إلى ٦٩ مؤسسة، وفي عام ١٩٩٥ بلغت ٩٦ مؤسسة، وفي عام ١٩٩٧ ارتفعت إلى ١٠٣ مؤسسة، وفي عام ٢٠٠٦ زادت إلى ١٢٥ مؤسسة.

في التسعينيات ظهرت أوائل المؤسسات التعليمية الإسلامية في تترستان بدءا من الدورات الأولية في المساجد والمدارس الثانوية المتخصصة (كان أهم المدارس الدينية "تنزيلا" و"النجمة" في مدينة نابريجناي تشلني[72]، إلخ) وحتى مؤسسات التعليم العالي

[72] مدينة كبيرة في شمال شرق تترستان تقع على الضفة اليسرى لنهر كاما.

مدرسة "المحمدية"، ومدرسة قازان الإسلامية العليا المسماة "ألف عام من الإسلام"، وغيرهما من المؤسسات). أما اليوم فهناك تسع مدارس إسلامية مسجلة.



أساتذة الجامعة الإسلامية الروسية وطلّابها، ٢٠٠٧

يعد ظهور الجامعات الإسلامية في روسيا في أواخر التسعينيات مرحلة جديدة في إرساء نظام التعليم الإسلامي. وكانت أولى هذه الجامعات الجامعة الروسية الإسلامية، التي افتتحت عام ١٩٩٨ في قازان. ولم يكن هذامجرد ظهور لأنواع جديدة من المؤسسات التعليمية الإسلامية، ولكن مرحلة جديدة في تشكيل علاقات الدولة بالإسلام. وخلال هذه الفترة بالذات كان هناك تفهم في المجتمع وفي دوائر السلطة، لضرورة تهيئة الظروف ليس فقط لإعادة القيم الدينية المنفصلة عن الحياة الواقعية إلى الحياة الروحية والسياسية للمجتمع الروسي، بل واستعادة التقاليد التي اكتسبها المسلمون الروس عبر قرون عديدة. وهذا نموذج مرن للإسلام يجمع بين التسامح والتقوى. واليوم يبدو مهمًا في الواقع إعداد

شخصيات دينية مسلمة وعلماء دين يمكنهم فهم احتياجات وخصائص طبيعة المجتمع الروسي المتعدد الأديان والتوجه.

ولا حصر للمشاكل في المدارس الإسلامية بطبيعة الحال، سيّما مشاكل الموظفين. وفي السنوات الأخيرة حدثت بالطبع تغيرات كبيرة في هذا المجال نذكر من بينها أن المؤسسات التعليمية شكلت هيئات تدريس ذاتي، ممن تلقوا تعليمهم الديني في كبريات الجامعات الإسلامية العالمية في مصر وماليزيا والأردن وسوريا وغيرها من البلدان. ومن المشجع أيضا أن من بين المدرسين هناك من تخرج في جامعات داخلية ممن قاموا بتحسين معارفهم في مؤسسات تعليمية أخرى. غير أن بين المدرسين لازال هناك القليل من المتخصصين الحاصلين على درجات علمية. وليست المشكلة فقط في الدرجة العلمية، وإنما في أن هؤلاء المدرسين، وعلى الرغم من إعدادهم الجيد إلا أنهم يمثلون مدارس دينية وتربوية مختلفة تماما. وهذا يخلق الكثير من المشاكل في بناء نظام تعليمي موحد، ويدل مرة أخرى على أنه من الضروري الإسراع في عملية إحياء تقاليد علم أصول الدين الإسلامي الروسي.

وتجدر الإشارة إلى أن العام ٢٠٠٧ كان نقطة تحول من حيث الدعم المالي للمؤسسات التعليمية الإسلامية من جانب روسيا. ففي هذا العام اتخذت الحكومة الروسية قرارا بشأن "تشجيع إعداد المتخصصين في تاريخ وثقافة الإسلام"، وهو برنامج شرعت في تنفيذه خمس جامعات إسلامية في روسيا. هذا البرنامج - المعُد حتى عام ٢٠١٠ - يفتح بالتأكيد آفاقا جديدة لحل العديد من المشاكل في مقدمتها الدعم التعليمي والمنهجي، وتحسين تنظيم العملية التعليمية ورفع كفاءة المعلمين.

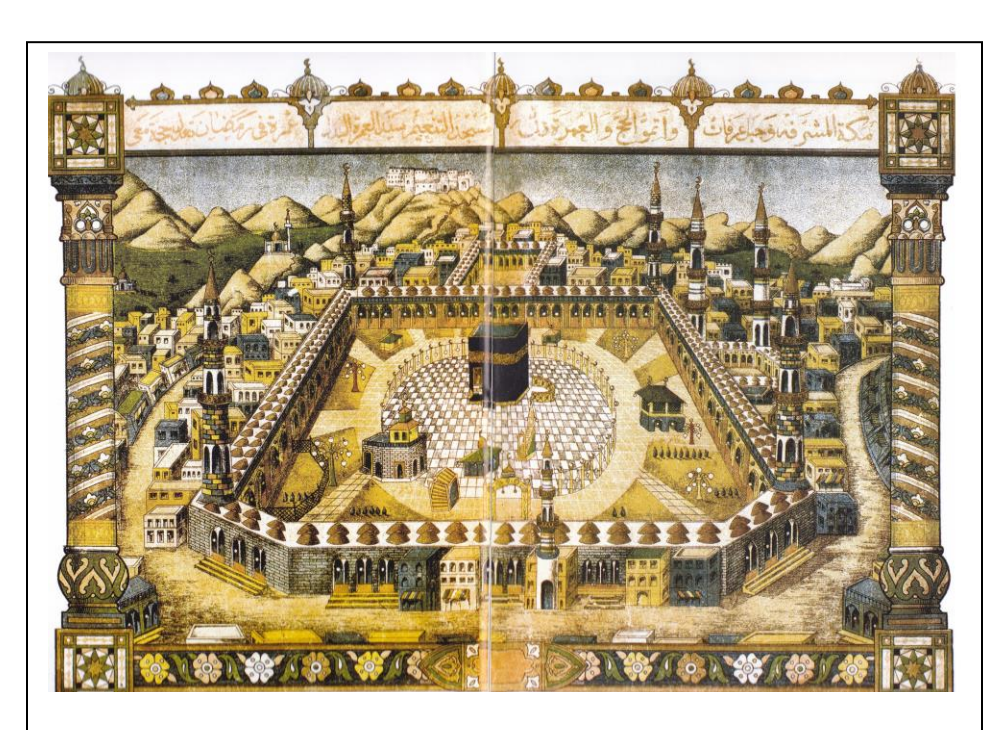
وبداية من عام ٢٠٠٧ أطلق صندوق دعم العلوم الإسلامية والتعليم والثقافة نشاطا قويا، وهو يقدم منحا لدعم العملية التعليمية وأنشطة البحث والنشر في المؤسسات التعليمية الإسلامية.

ودومًا ما أثار الوضع القانوني للمدارس الدينية في دولة علمانية الكثير من المشكلات، ولذا تم إجراء تعديل على القانون الاتحادي للتعليم، ما أعطى إمكانيات جديدة للمؤسسات التعليمية الإسلامية، التي على الأقل يمكنها بوضعها القانوني الارتقاء إلى مستوى المؤسسات التعليمية الحكومية وإصدار شهادات لخريجيها معترف بها من الدولة.

وهناك دور مؤثر تقوم به وسائل الإعلام الإسلامية في النهضة الإسلامية. ظهرت أوائل الدوريات الإسلامية في روسيا في بداية التسعينات، وفي عام ١٩٩٣ كانوا ثلاثة فقط. أما اليوم، فإن العدد الإجمالي لهذه الدوريات كبير للغاية ولا يمكن حصره، فهو في تغير مستمر. وجدير بالذكر أن هناك من فترة لأخرى توقف لصدور العديد من الصحف، ويرجع ذلك أساسا إلى الصعوبات المالية، وأيضا بسبب صعوبة العثور على المؤلفين المؤهلين إلى حد ما. غير أن الوضع مختلف إلى حد ما في تترستان، ففي جمهورية تترستان هناك العديد من الدوريات التي تصدر بشكل مستقر مثل صحف "الإيمان" و"العقيدة"، و"الدين والحياة" ومجلة "نور الإيمان" في قازان، وصحيفة "نور الإسلام" في نابريجناي تشلني.

ويتم نشر المؤلفات الدينية في روسيا، والتي صدرت بأعداد كبيرة، في اتجاه معين في السنوات الأخيرة. وإذا كان في أوائل التسعينات تم نشر كل ما له علاقة بالإسلام دون أي تقييم نقدي، ففي السنوات الأخيرة كان هناك سياسة تحريرية ما تأخذ بعين الاعتبار المستوى القومي للإصدارات وخصوصية الطوائف المسلمة.

ملحق الرسوم والصور



المسجد الحرام في مكة. تتوسط الصورة الكعبة "الحجر الأسود"، وهي رمز عظمة الله سبحانه وتعالى في الكرة الأرضية والمكان الوحيد للحج لكل مسلمي قازان.

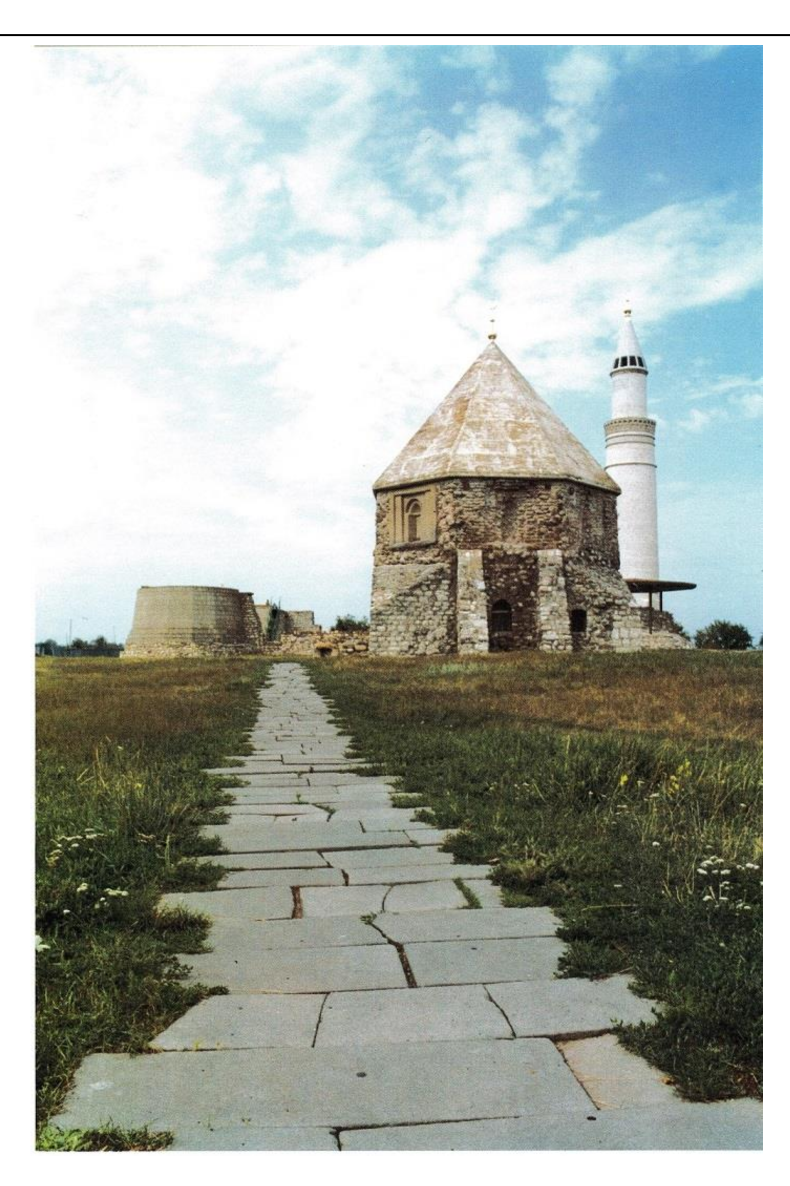
رسم ليتوغرافي، من أعمال ف. ف. فاراكسين، كازان، مطلع القرن ٢٠.



المفتي: إسحاقوف عثمان

المشرف على الإدارة الدينية لمسلمي جمهورية تترستان

تاريخ التصوير ٢٠٠٩



من آثار مدينة "بلغار" التاريخية

جمهورية تترستان



الشجرة المحمدية:

أرسل الله لكل قوم رسول يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، أما الرسول محمد (ص) فقد بُعث للناس أجمعين. تشير المصادر الشعبية إلى أنه ربما كان هناك أكثر من ١٢٤ رسول، بينما يحدثنا القرآن عن ٢٥ فقط منهم. ويبين الشكل شجرة نسب الرسول من آدم عليه السلام، وهي من الأعمال الفنية التي رسمت في قازان عام ١٨٩٤.



التورك الأوائل وتصور عن خلق العالم

بريشة الفنان: روشان شمس الدينوف



ألموش خان يستقبل أحمد بن فضلان

بريشة: روشان شمس الدينوف



مدينة بلغار: مشهد لخروج الخان من القلعة

بريشة: روشان شمس الدينوف

Махмудъ Ханъ 1446 . . . . محمود خان

Мамтякъ Ханъ 1446 . . . . ممتك خان

Халилъ Ханъ . . . . خليل خان

Ибрагимъ Ханъ 1467--78 . . . . ابراهيم خان

Али Ханъ 1478—87 . . . . على خان

Махмедаминъ Ханъ 1487—96 . . . . . محمدامين خان

Мамукъ Ханъ 1495 . . . . ماموق خان

Абдуллатыфъ Ханъ 1497--1502 . . . . عبداللطيف خان

Махмедаминъ Ханъ 1502--18 . . . . . محمد امين خان

Шейхали Ханъ 1519--21 . . . . شيخ على خان

Сахибгирей Ханъ 1521--24 . . . . . . صاحب گراى خان

Сафагирей Ханъ 1525—30 . . . . صفا گراى خان

Джанали Ханъ 1531--35 . . . . جان على خان

Сафагирей Ханъ 1535—46 . . . . صفا گراى خان

Шейхали Ханъ 1564 . . . . شيخ على خان

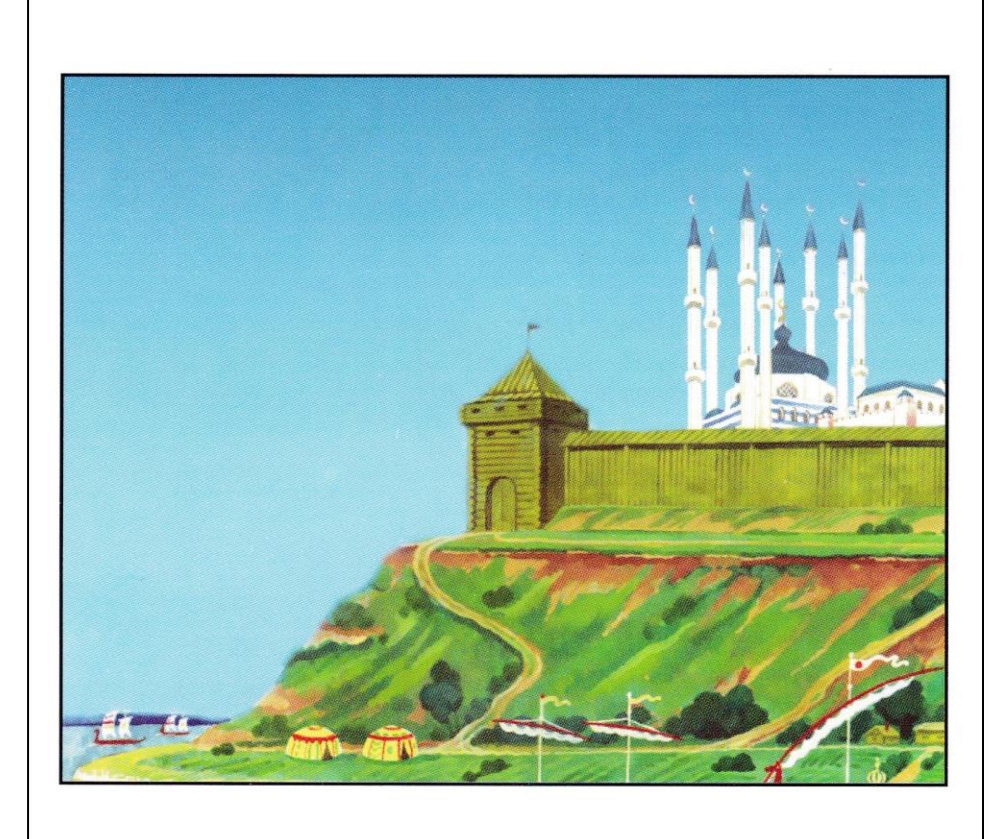
Сафагирей Ханъ 1546—49 . . . . صفا گراى خان

Утамышъ Ханъ 1549—51 . . . . اوتامش خان

Шейхали Ханъ 1551—52 . . . . شيخ على خان

Ядигеръ Ханъ 1552 . . . . يادكار خان

ثبت بتسلسل أسماء الملوك (الخانات) في خانية قازان.



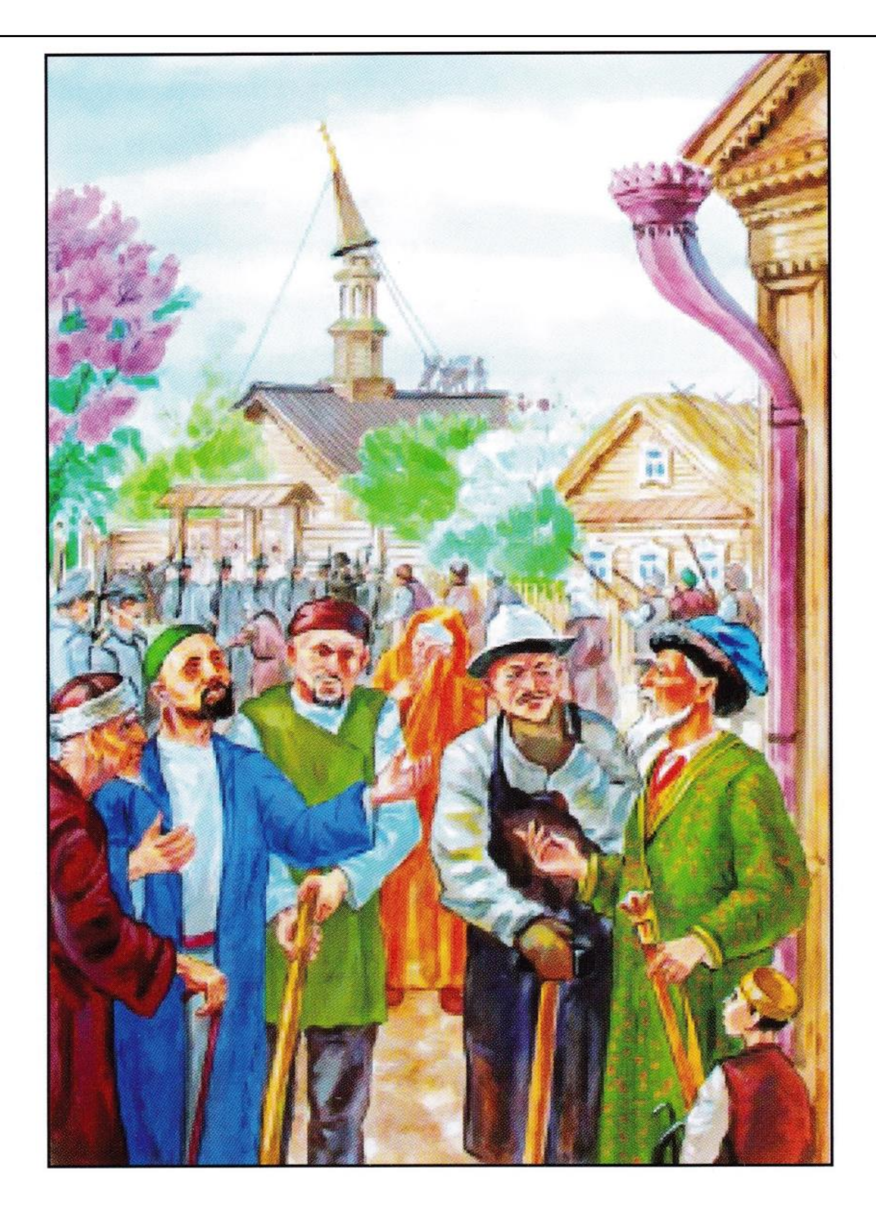
مدينة قازان في النصف الأول من القرن ١٦.

بريشة: روشان شمس الدينوف



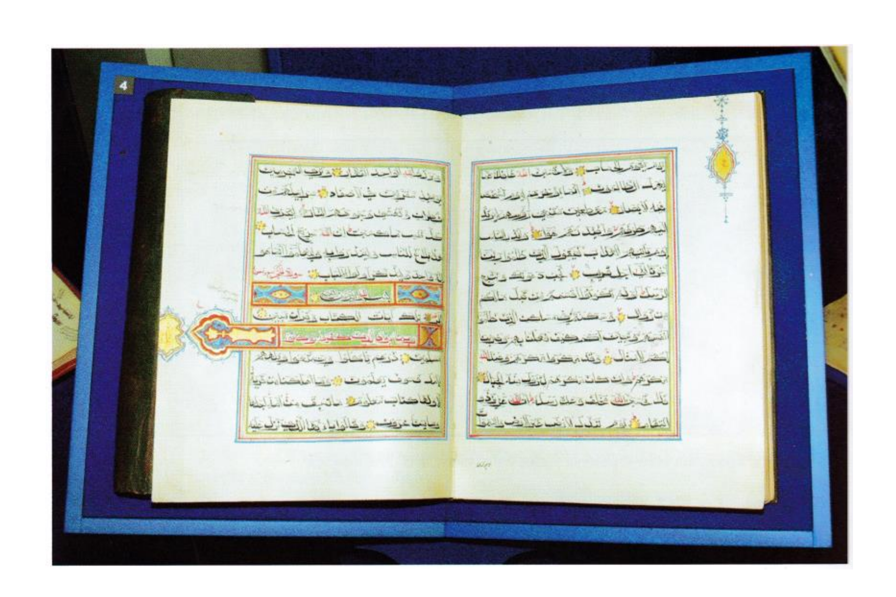
الملكة سيونبيكا مع ابنها

بريشة: ب. ديمينتيف



تدمير المسجد في القرن ١٧ بأمر من القيصرة الروسية "إليزافيت"

بريشة: إلدوس عظيموف



قرآن مدون بخط اليد. نهاية القرن ١٨.



كتاب عنوانه "مختصر الوقاية" في الشريعة الإسلامية. عام ١٧٦٨



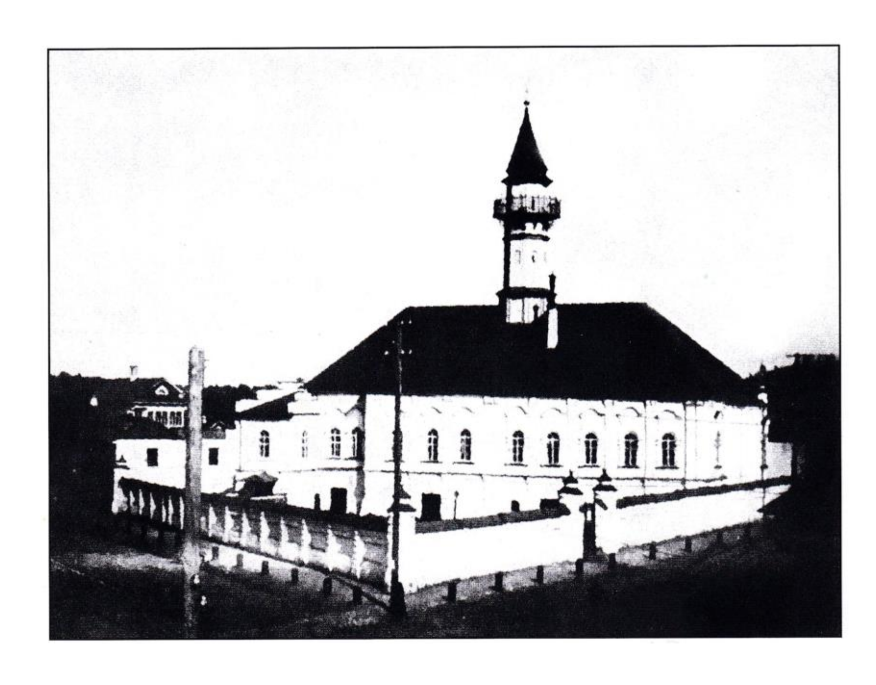
القيصرة الروسية "يكاترينا الثانية"

بريشة: دميتري ليفيتسكي

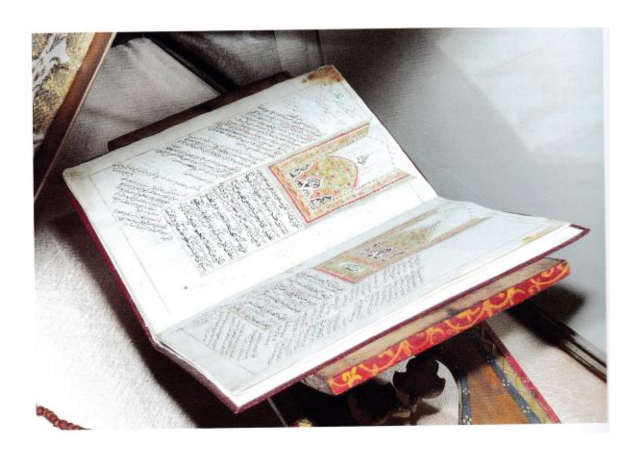


برج سيونبيكا

بريشة: إدوارد تورنورالّي



مسجد مرجاني، تأسس في ١٧٦٧-١٧٧١ وأشرف عليه المهندس المعماري ف. إ. كافتيرييف. ويسمى المسجد أحيانا "الجامع الأول".



مخطوطة كتاب "رسالة في البلاغة"، نهاية القرن ١٨.



المفتي "عبد الواحد سليمانوف" (١٨٤٠-١٨٦٢)

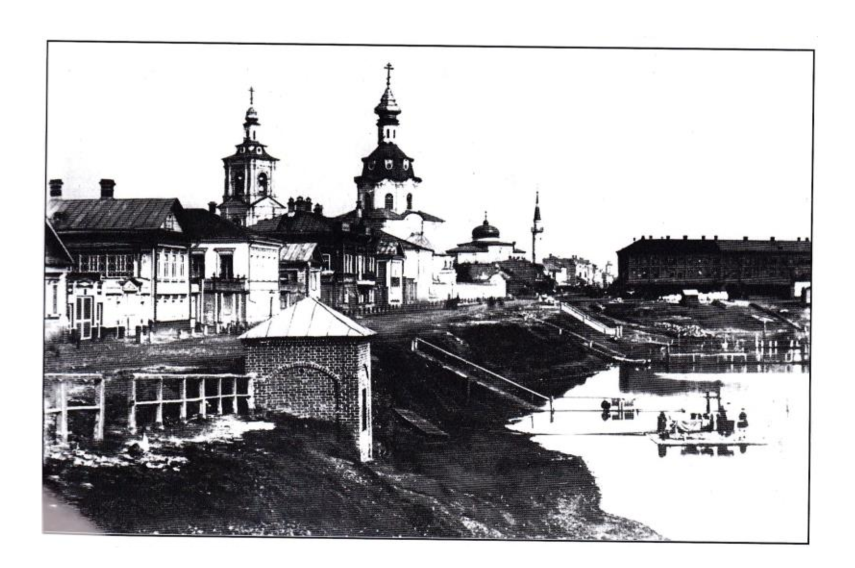


مسجد "أباناي" (يعرف أيضا باسم المسجد الثاني) تأسس عام ١٧٦٧-١٧٧١.

بريشة: إدوارد تورنورالّي



المفتي محمديار سلطانوف (١٨٨٦-١٩١٥)



منظر لمسجد سينّايا من بحيرة كابان



سفينة نوح أو "فُلك الإيمان". والسفينة مرسومة على هيئة حروف من الأبجدية العربية عمادها قول "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم" وتم تزيين اللوحة بآيات من القرآن الكريم، ففي أعلى اليمين كتبت آية "فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين" من سورة يوسف (الآية ٦٤)، وفي أعلى اليسار انعكاس لهذه الآية. أما في أسفل اليمين فكتبت آية "هذا من فضل ربي" وفي أسفل اليسار انعكاس لها. قازان ١٩٠٤.



شهاب الدين مرجاني.

بريشة: رفقات فاخيتوف

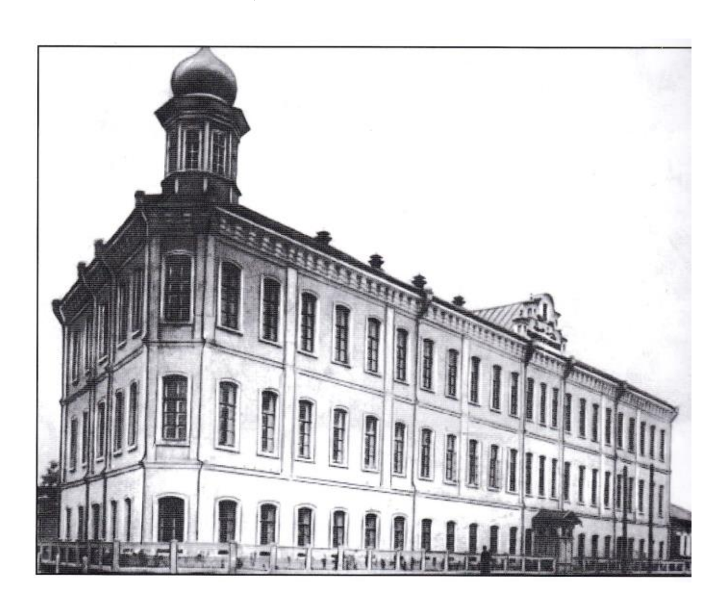


الختم الخاص بشهاب الدين مرجاني. النصف الثاني من القرن ١٩.



إمام وزوجته

لوحة بألوان مائية رسمها في قرية "كيتيل بوكاش" الرسام كارل غون في منتصف القرن ١٩



المدرسة "الحسنية".. مدينة أرينبورغ.

ВЫСОЧАЙШІЙ МАНИФЕСТЪ.

БОЖІЕЮ МИЛОСТІЮ,

МЫ, НИКОЛАЙ ВТОРЫЙ,

ИМПЕРАТОРЪ И САМОДЕРЖЕЦЪ ВСЕРОССІЙСКІЙ,

ЦАРЬ ПОЛЬСКІЙ, ВЕЛИКІЙ КНЯЗЬ ФИНЛЯНДСКІЙ

и прочая, и прочая, и прочая.

„НИКОЛАЙ".

مرسوم نيكولاي الثاني ١٧ أكتوبر ١٩٠٥



مجلس أمناء وأساتذة المدرسة "المحمدية". الصورة في بداية القرن ٢٠.



درس في المدرسة "المحمدية"



№ 7 ١٩نويابر ١٩٠٧ سنه دوشنبه ٢٦ شوال ١٣٢٥ سنه

الإصلاح

اخطار:
بارلگان يارولرنى اوزگارتوگه
هيئت تحريريه اختيارليدر. باصلمغان
مقاله‌لر كيرو بيارلماس. امضاسز
مكتوبلر باصلماس.

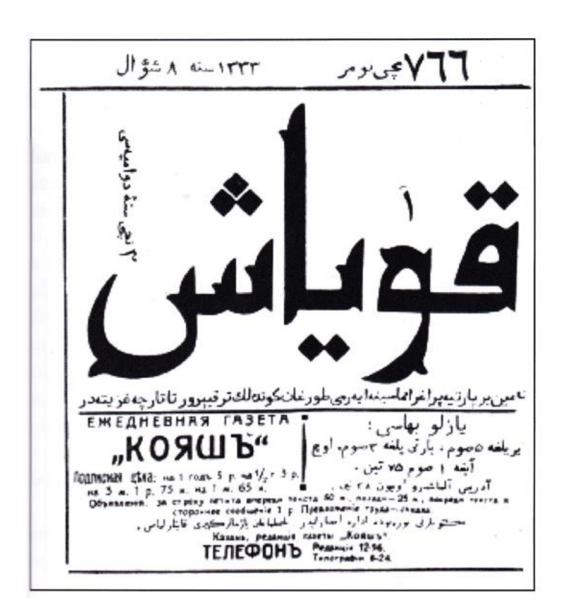
غزيته‌نك بهاسى
سنه‌لك ٣صوم آلتى آيلق ١صوم ٥٠
تين ٣ آيلق ١صوم شاكردلر ايچون ٣
آيغه ٧٥ تين قزان شاكردلرينه
آيلاب ٢٥ تين.

آدرس:
Казань, Номера „БОЛГАРЪ“
Редакція газ. „ЭЛЬИСЛАХЪ“
Телефонъ № 748

سنه ٤ تأسيس ٢ ١٣٢٥

ЕЖЕНЕДѢЛЬНАЯ ГАЗЕТА
„ЭЛЬ-ИСЛАХЪ“

جريدة "الإصلاح"



٧٦٦نچى نومر ١٣٣٣سنه ٨ شوال

قوياش

ЕЖЕДНЕВНАЯ ГАЗЕТА
„КОЯШЪ“
Подписная цѣна: на 1 годъ 5 р. на 1/2 г. 3 р. на 3 м. 1 р. 75 к. на 1 м. 65 к.

يازلو بهاسى:
بريلغه ٥صوم، يارتى يلغه ٣صوم، اوچ
آيغه ١ صوم ٧٥ تين.

ТЕЛЕФОНЪ

جريدة "كوياش" (الشمس)



نومر ١٣٥

وقت

اورنبورغده چقا تورغان کونده‌لك سیاسی و ادبی غزته‌در.

فزته‌نك بهاسی:
یللق ٥ سوم، آلتی آیلق ٢ سوم ٦٠ ت.
اوچ آیلق ١ سوم ٣٥ ت، بر آیلق ٤٥ ت.
بره‌مله‌ب ٥ تین.
آدریس آلماشدرو ٢٨ تین.

«شورا» مجموعه‌سی
ایله برلکده و بر مفتکه یللق ٩ سوم.
آلتی آیلق ٤ سوم ٦٠ تین.
اوچ آیلق ٢ سوم ٤٠ ت. بر آیلق ٨٥ ت.
«شورا» نك بر نومری ٢٥ تین.

چیت مملکت ایچون «وقت» یللق ١٠ سوم. «شورا» ٦ صوملق.

[illegible]

Редакція газеты „ВАКТЪ" Оренбургъ.
REDACTION „VAKT" ORENBOURG. RUSSIE.

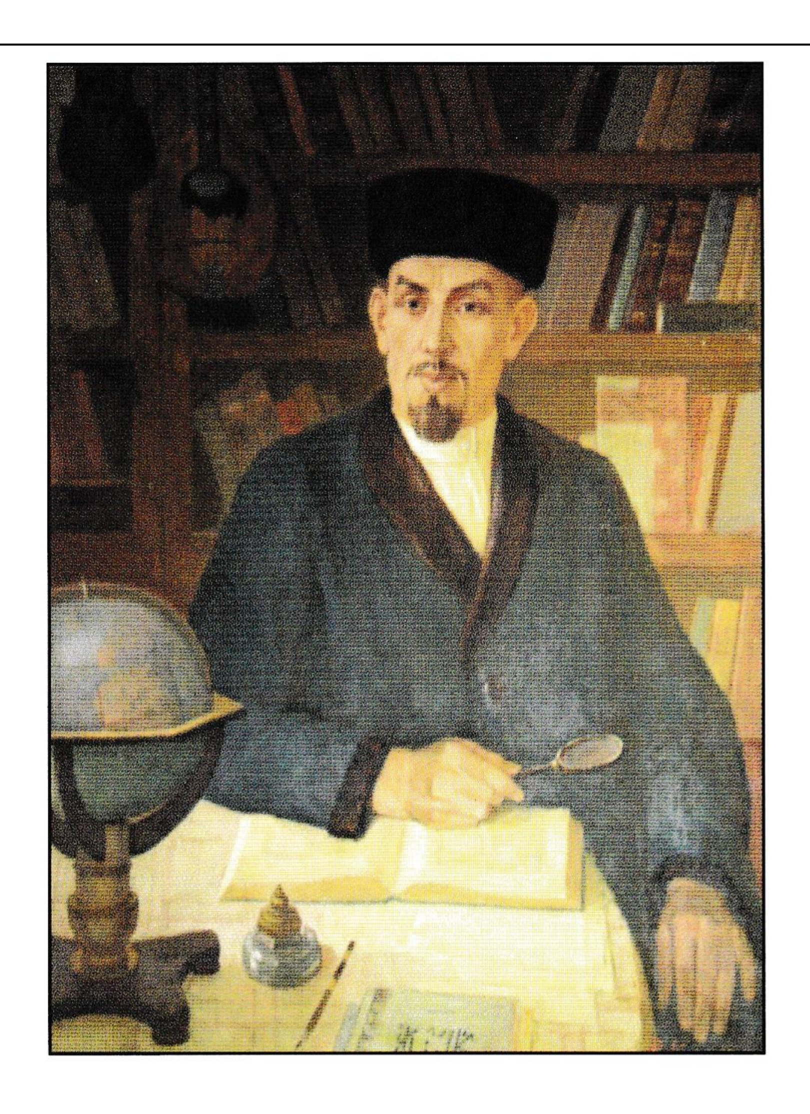
ای. م. پیلمان نك

تش دلوالاو کابینیتی

تش دوقتوری وارییس

نك تش دوالاو کابینیتی

مجلة "الوقت"



قيوم ناصيري

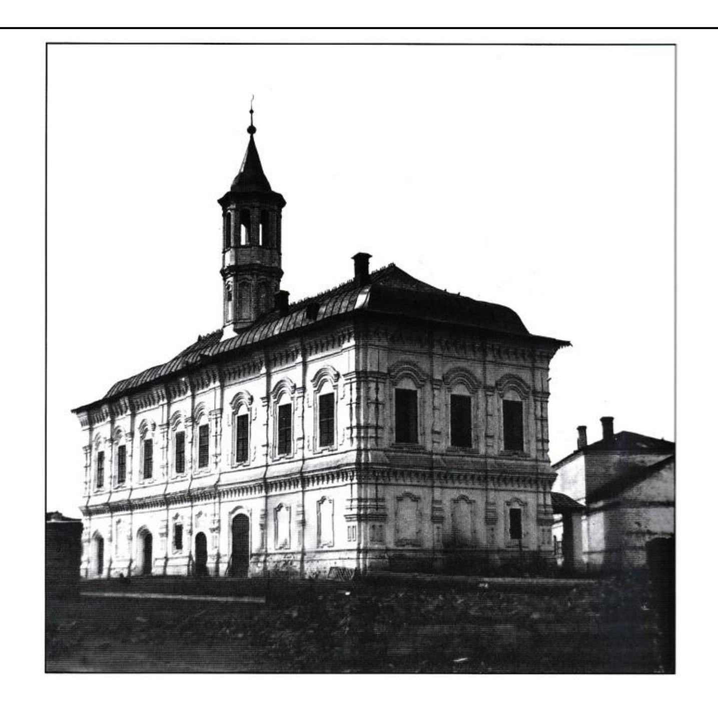
بريشة: رفقات فاخيتوف



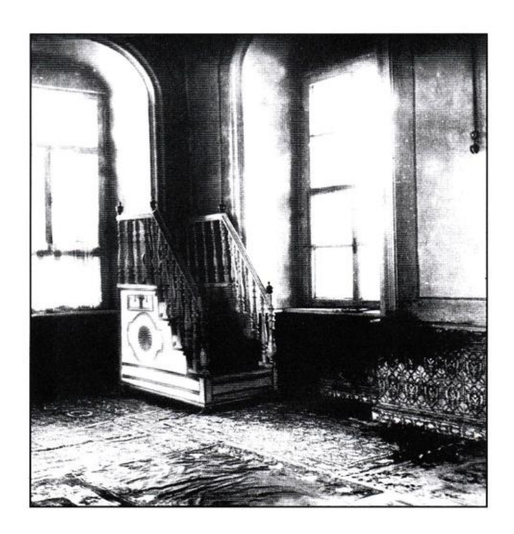
جنود مسلمون يؤدون الصلاة قبيل الحرب



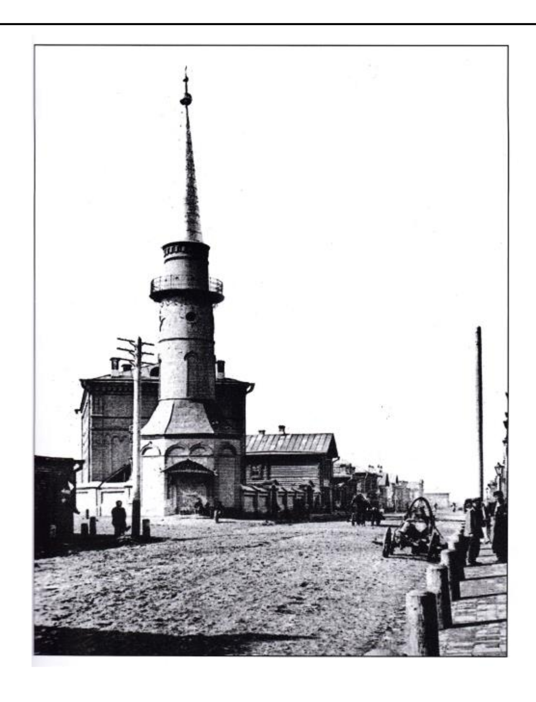
دعوة الإمام للجهاد دفاعًا عن الوطن الأم



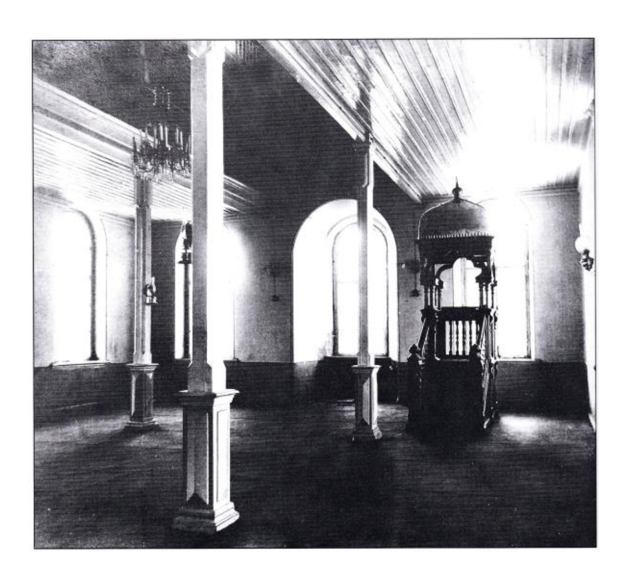
مسجد أباناي. الصورة في بداية القرن ٢٠.



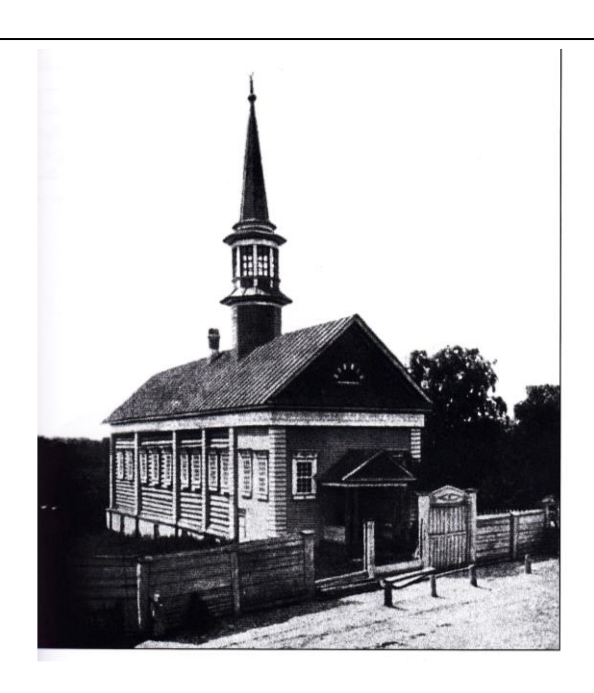
المنبر في مسجد أباناي. الصورة في بداية القرن ٢٠.



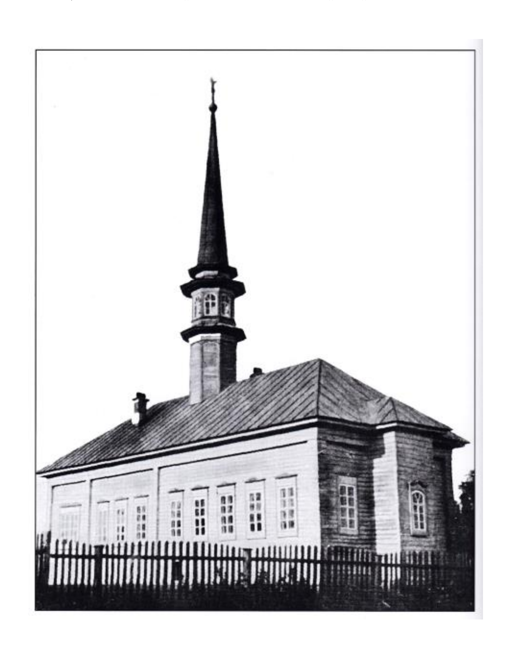
مسجد السلطان (ومن أسمائه الأخرى: زيغانشي" و"عثمانوف" و"الجامع الثامن" و"المسجد الأحمر". تأسس في ١٨٦٧ بإشراف المهندس المعماري ي. أنيكن.



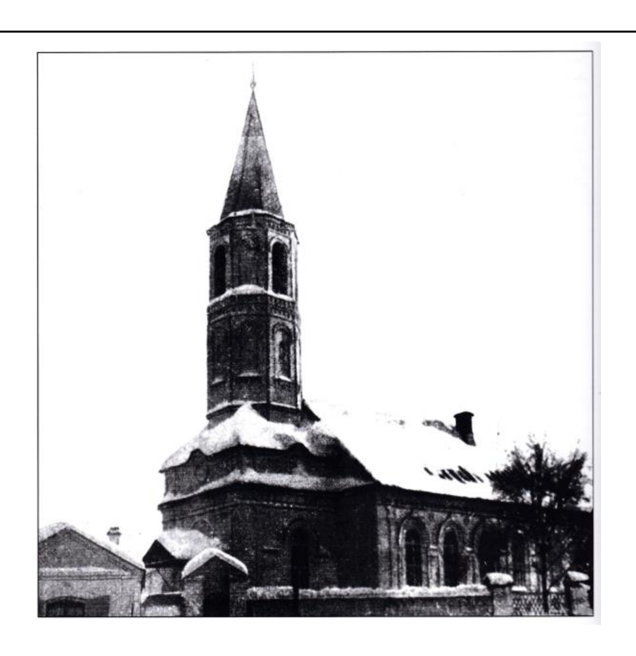
المحراب والمنبر في مسجد السلطان. الصورة في بداية القرن ٢٠.



المسجد الأول، في حي "الأدميرالية" في قازان، عام ١٨٥٢.



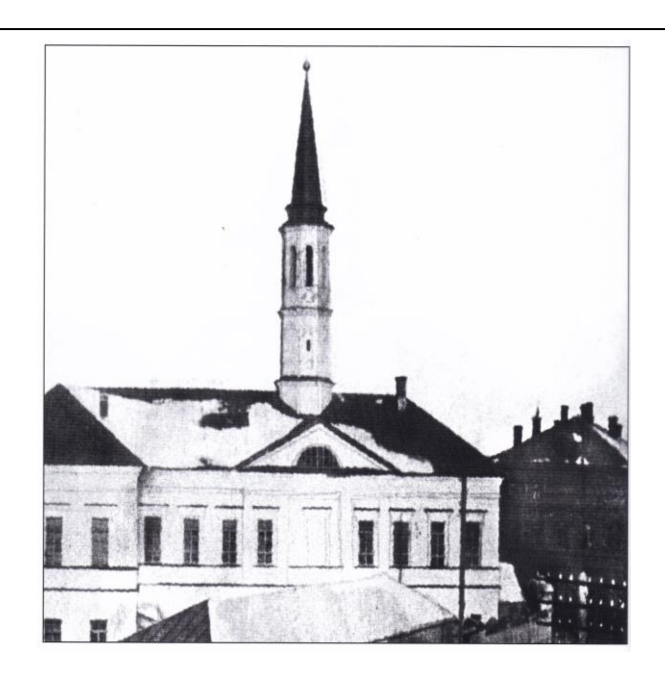
المسجد الثاني،حي بورخوفايا.مدينة قازان. ١٨٩٩.



مسجد بناه محمدجان كازاكوف في قازان عام ١٨٧٦



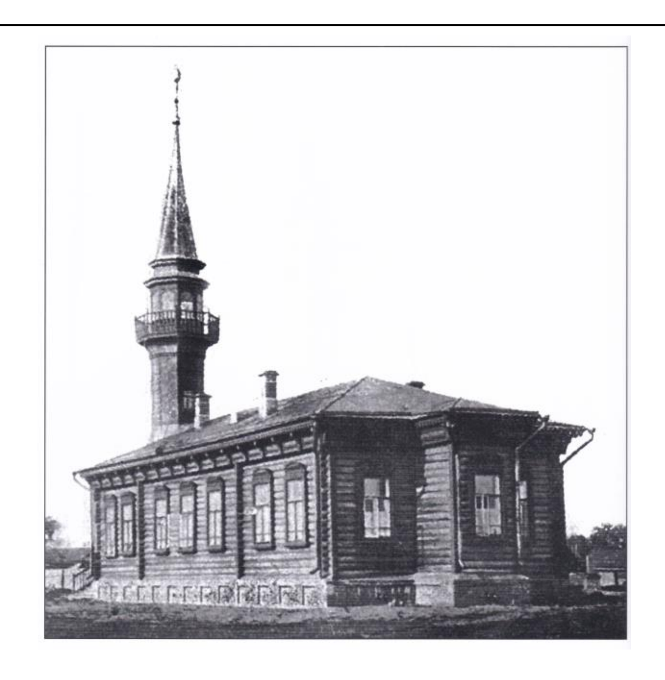
مسجد "إسكاتاش" (ومن أسمائه الأخرى: "الحجارة القديمة"، و"الحجارة الكبيرة"، و"الجامع التاسع"، تأسس عام ١٨٠١ – ١٨٠٢ بإشراف المهندس المعماري أ. ك. شميدت.



المسجد الرابع، بناه أحمد عبدالقادر في ١٨٥٧



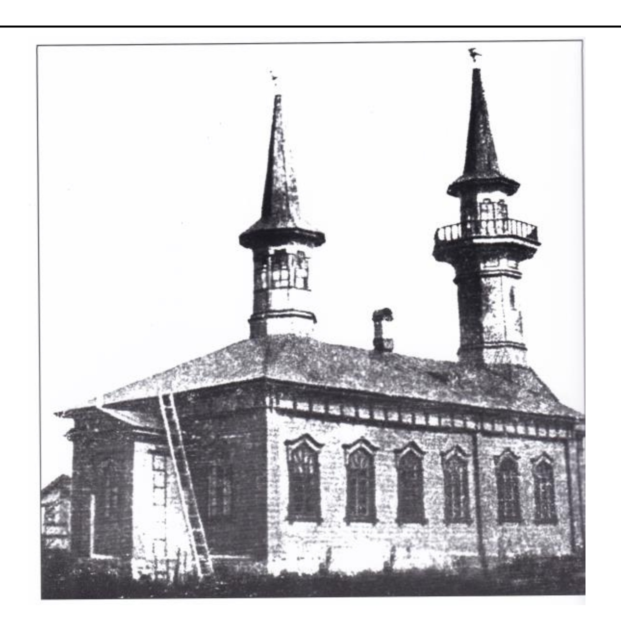
المسجد الخامس، مدينة قازان.



المسجد السابع عشر "المسجد المحلي"، مدينة قازان

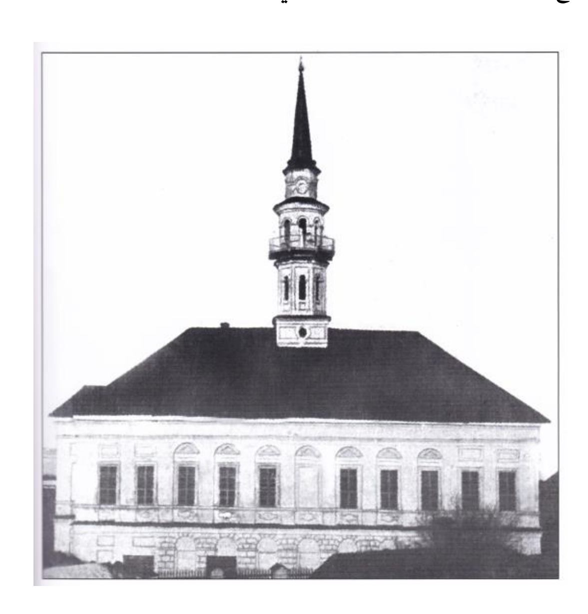


الجامع الأول، حي بورخوفايا، مدينة قازان.

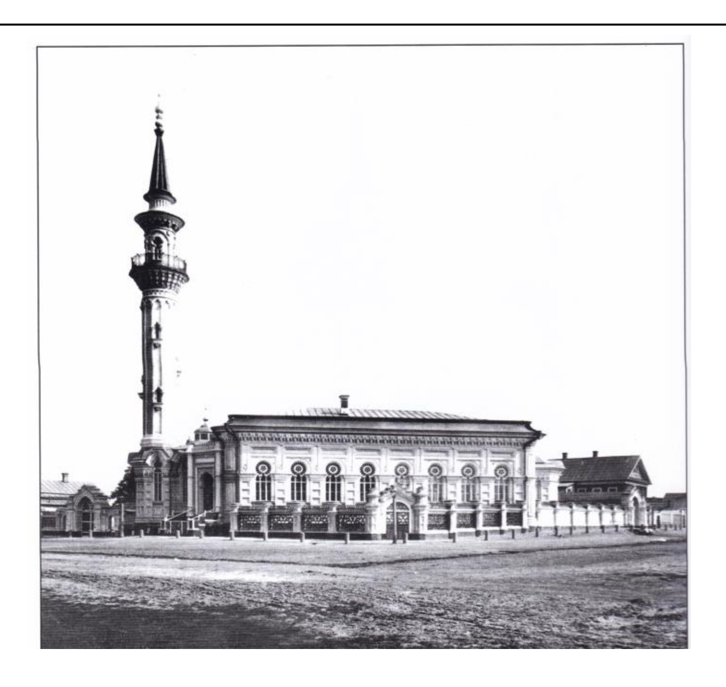


المسجد الثاني، حي الأدميرالية، قازان.

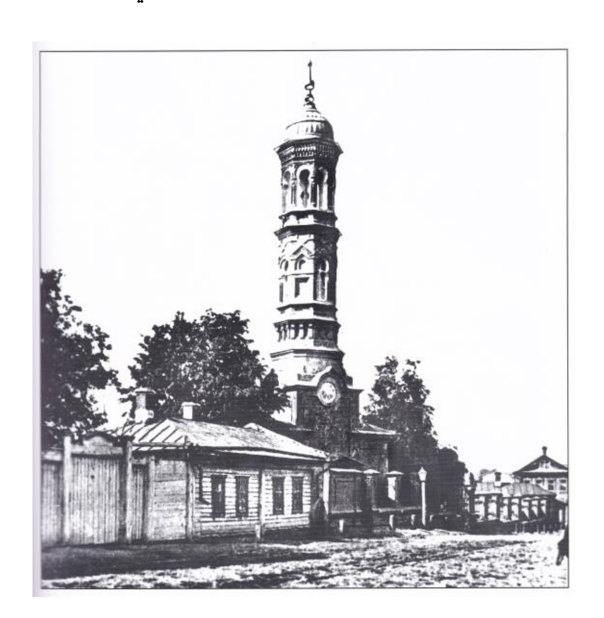
وضع حجر الأساس التاجر القازاني سليمان عايدوف سنة ١٨٩٨



المسجد الأحمر (الحادي عشر). بني بتمويل من التاجر القازاني "جاهنشاه القزلي"

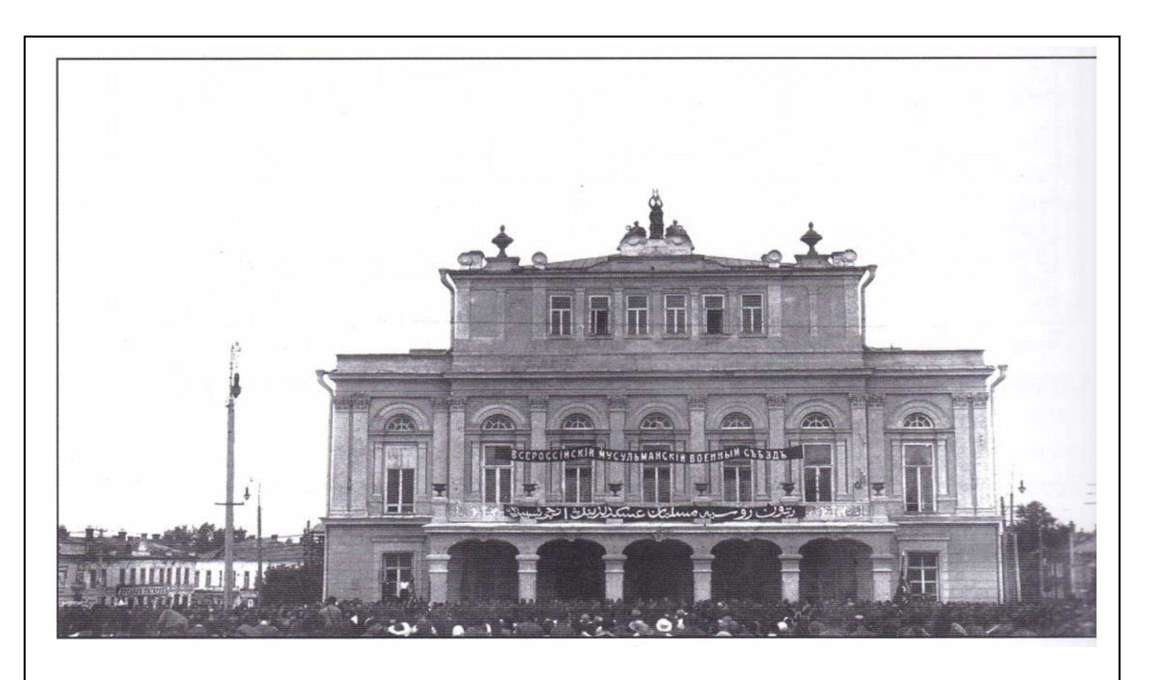


مسجد الأعظمية "عظيموفسكايا" تأسس في ١٨٩٠



مسجد "بورناي" (ومن أسمائه الأخرى:"الجامع الثالث")

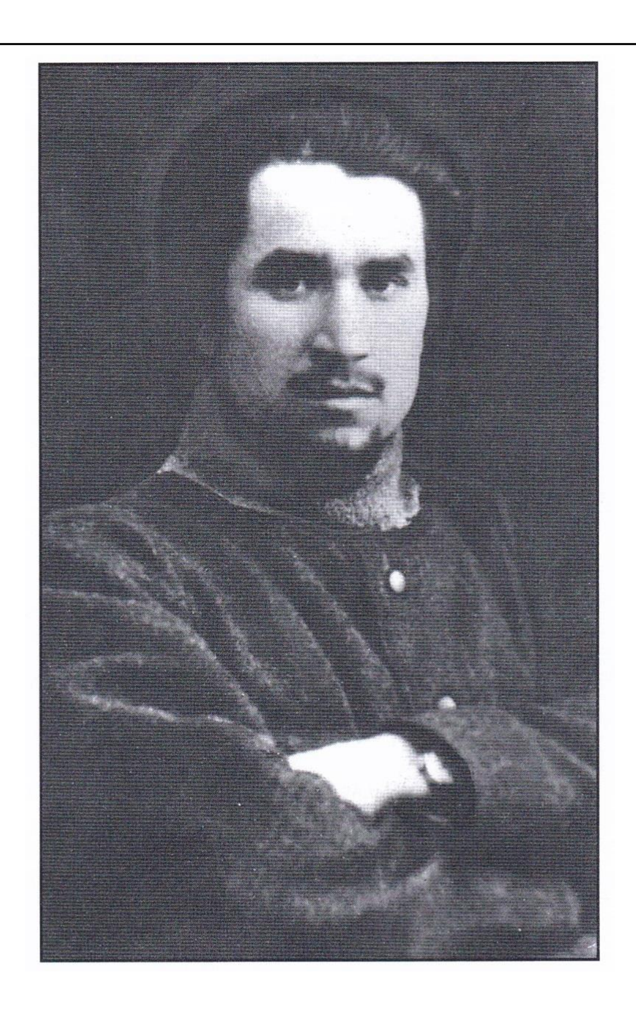
بُني بإشراف المهندس المعماري ب. إ. رومانوف سنة ١٨٧٢



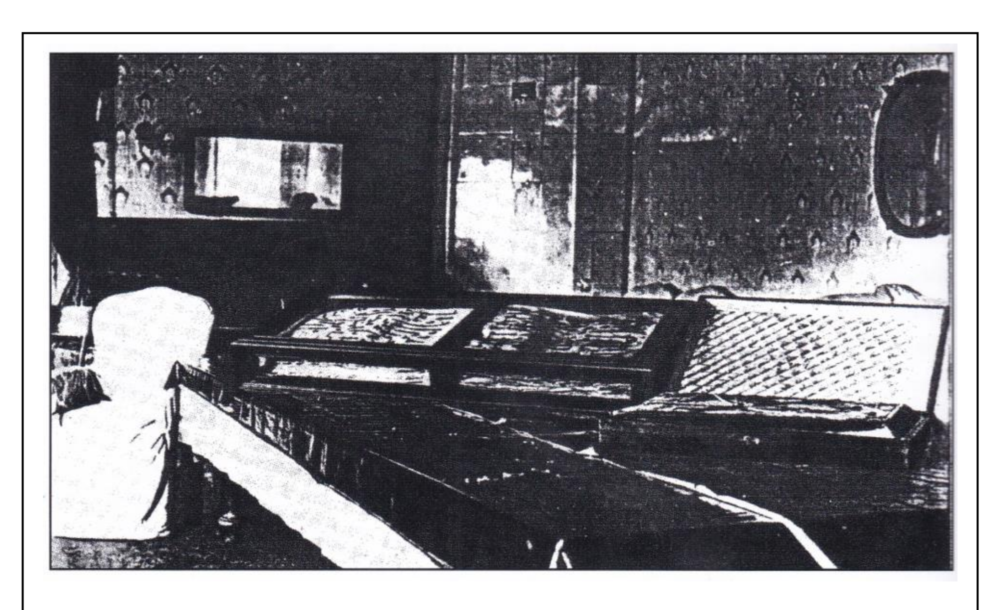
الملتقى العسكري الأول لعموم مسلمي روسيا. قازان ١٩١٧



مولّانور فاخيتوف



میرسعید سلطان غلییف



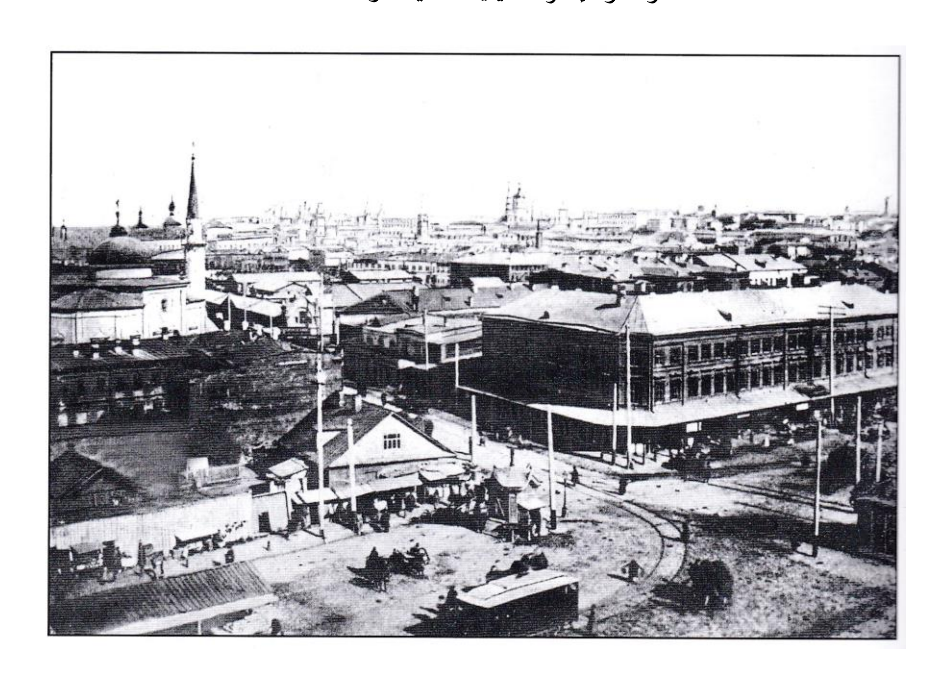
من الآثار الإسلامية المقدسة: مصحف عثمان، في مدينة أوفا، مقر المفتي (١٩١٨ – ١٩٢٣)



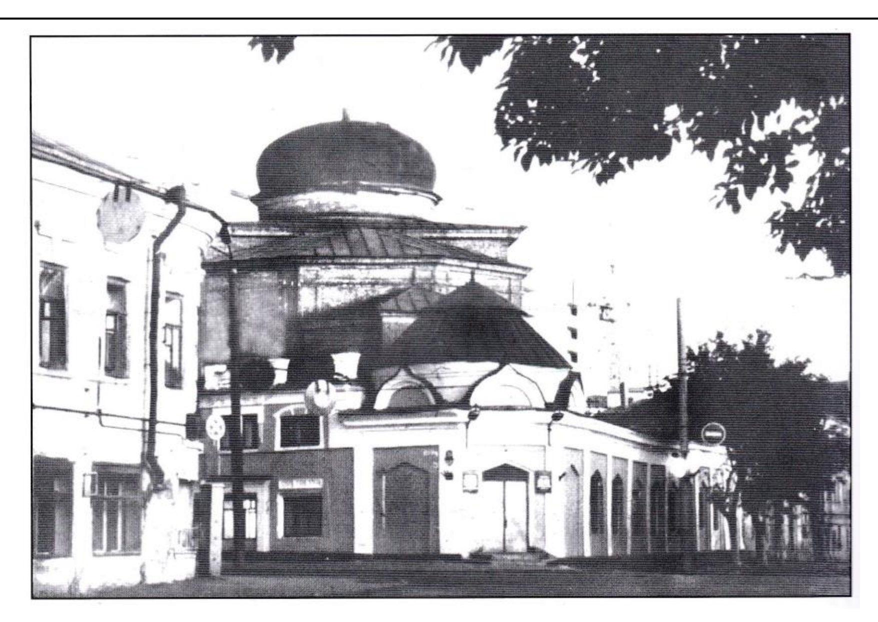
ملتقى مسلمي عموم روسيا، مطلع القرن ٢٠



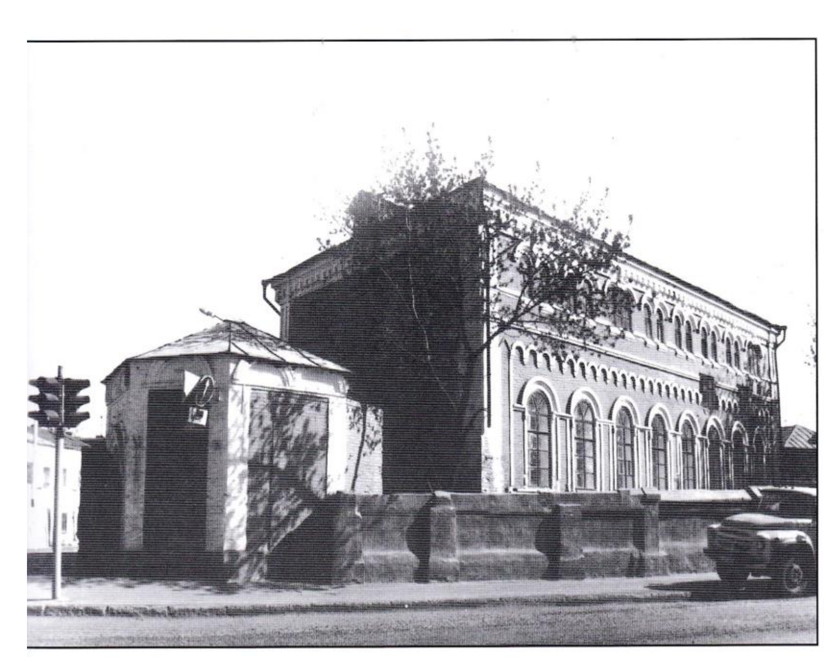
موظفو الإدارة الدينية، مدينة أوفا، ١٩٢٦



مركز حي تتري قديم بمدينة قازان. الصورة في بداية القرن ٢٠



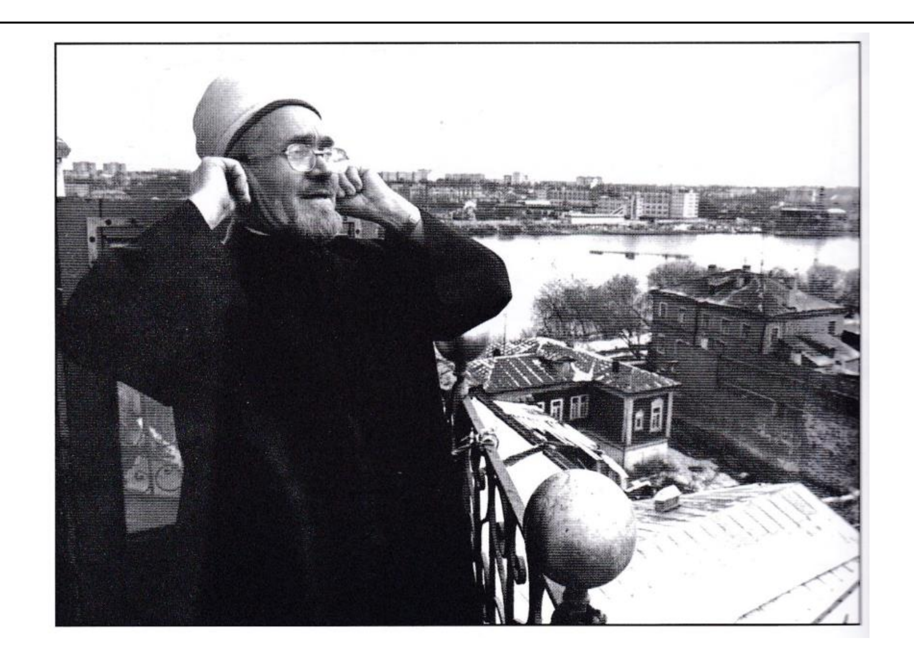
مسجد سنّايا. الصورة منتصف القرن ٢٠



مسجد السلطان. الصورة منتصف القرن ٢٠



معجزات الرسول: في الجزء العلوي الآية الكريمة "والله خير حافظا وهو أرحم الراحمين" وفي اليمين واليسار معجزات الرسول كما صاغتها قصيدة "البردة" للإمام البوصيري. يعود هذا الشكل لمطلع القرن ٢٠، قازان.



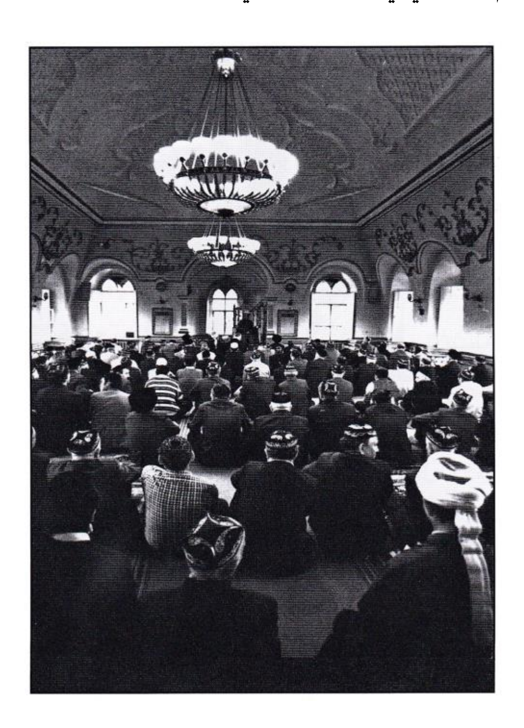
آذان من منارة مسجد مرجاني. المصوّر: ذ. بشيروف، ١٩٩٢



مسلمون تتر في طريقهم للصلاة في مسجد مرجاني. المصوّر: ذ. بشيروف، منتصف القرن ٢٠



التعليم الإسلامي في مسجد مرجاني، المصوّر: ذ. بشيروف، ١٩٩٢



عيد الأضحى في مسجد مرجاني. المصوّر: ذ. بشيروف، منتصف القرن ٢٠



بناية الجامعة الإسلامية الروسية، ٢٠٠٧



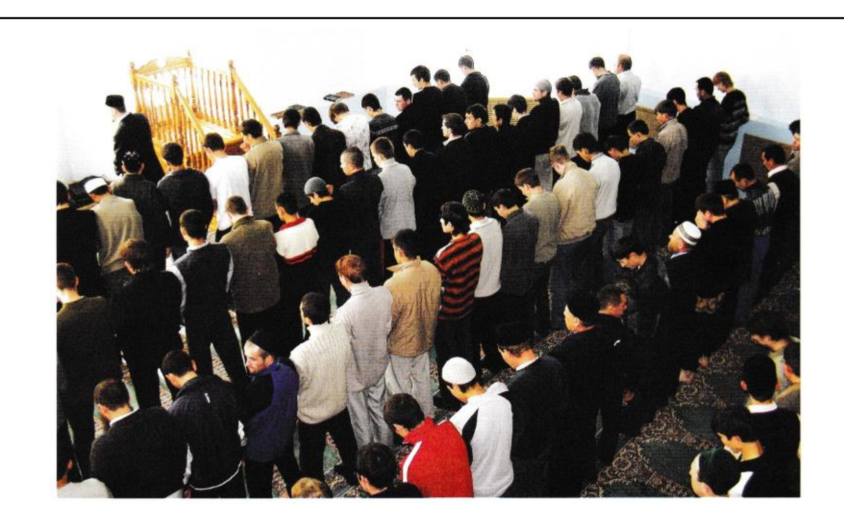
دميتري ميدفيديف في زيارة للجامعة الإسلامية الروسية، ٢٠٠٧



طالبات الجامعة الإسلامية الروسية



طلّاب الجامعة الإسلامية الروسية



الصلاة في مسجد "أنيلار"



افتتاح المسابقة الروسية في أصول الدين واللغة العربية. الجامعة الإسلامية الروسية، ٢٠٠٧



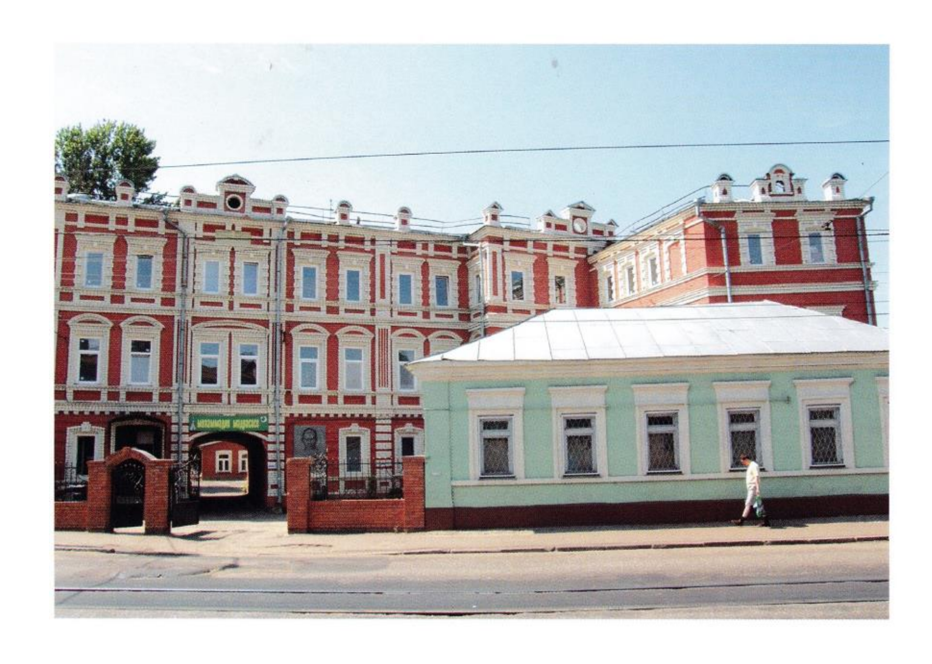
المشاركون في مسابقة حفظ القرآن، الجامعة الإسلامية الروسية، ٢٠٠٧



في مكتبة الجامعة الإسلامية الروسية



المعهد الثانوي التتري الإسلامي، ٢٠٠٨



المدرسة "المحمدية". منظر معاصر



مسجد مرجاني



مسابقة تلاوة القرآن الكريم بين الفتيات بمدينة قازان

برج سیمبیکا، قازان



مسجد "قول شريف"، قازان





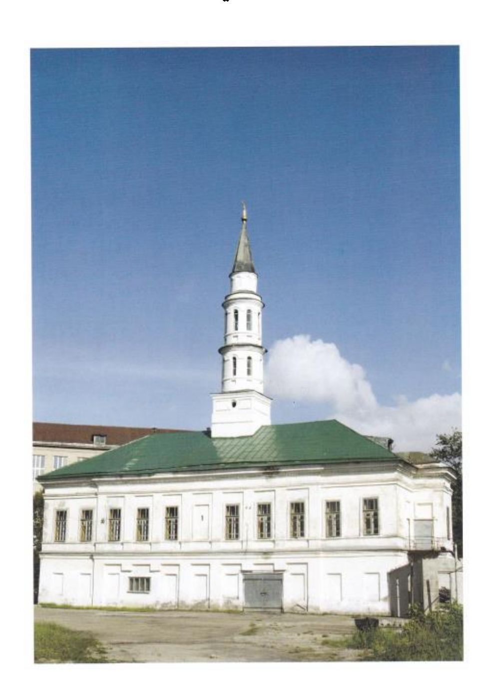
مسجد "نور الله"، قازان



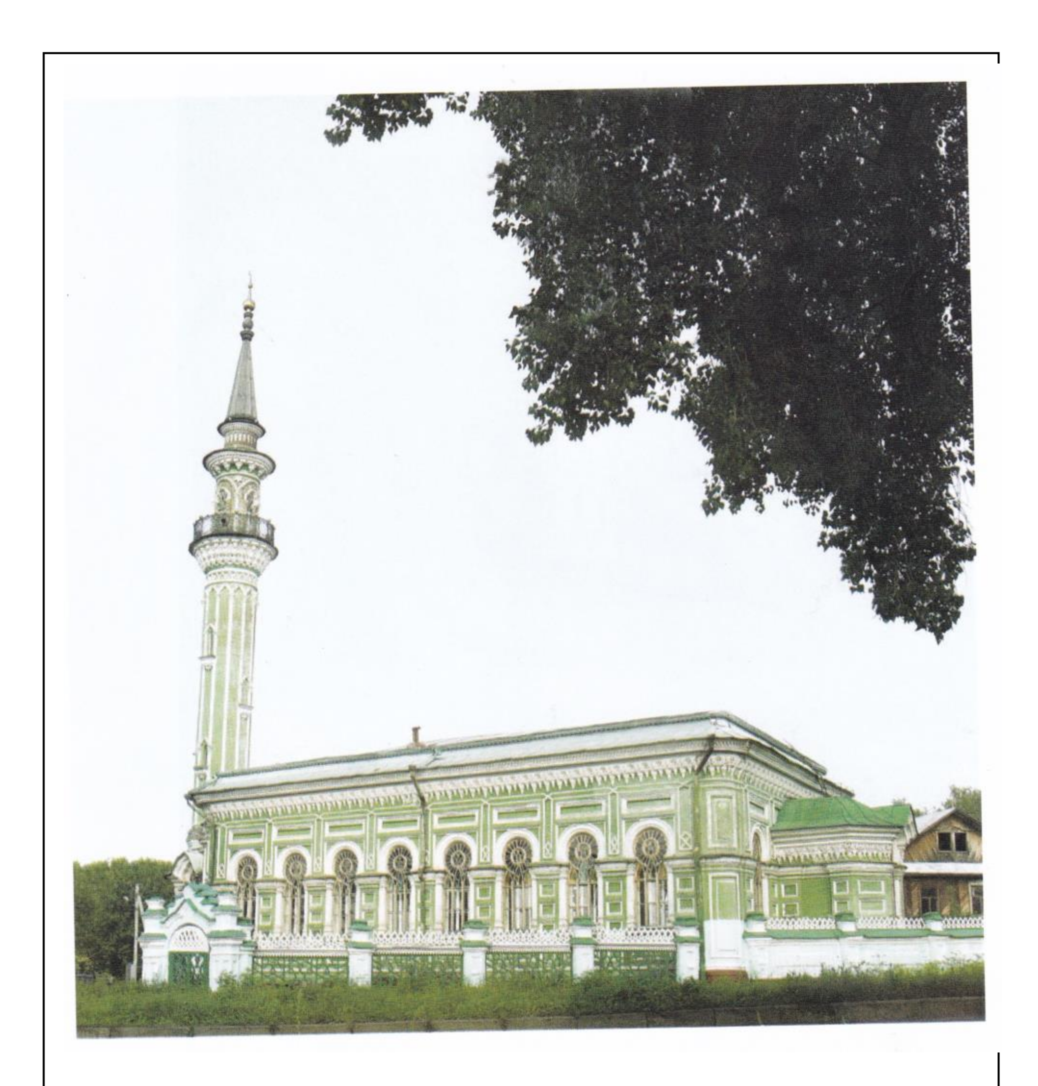
مسجد "السلطان"، قازان



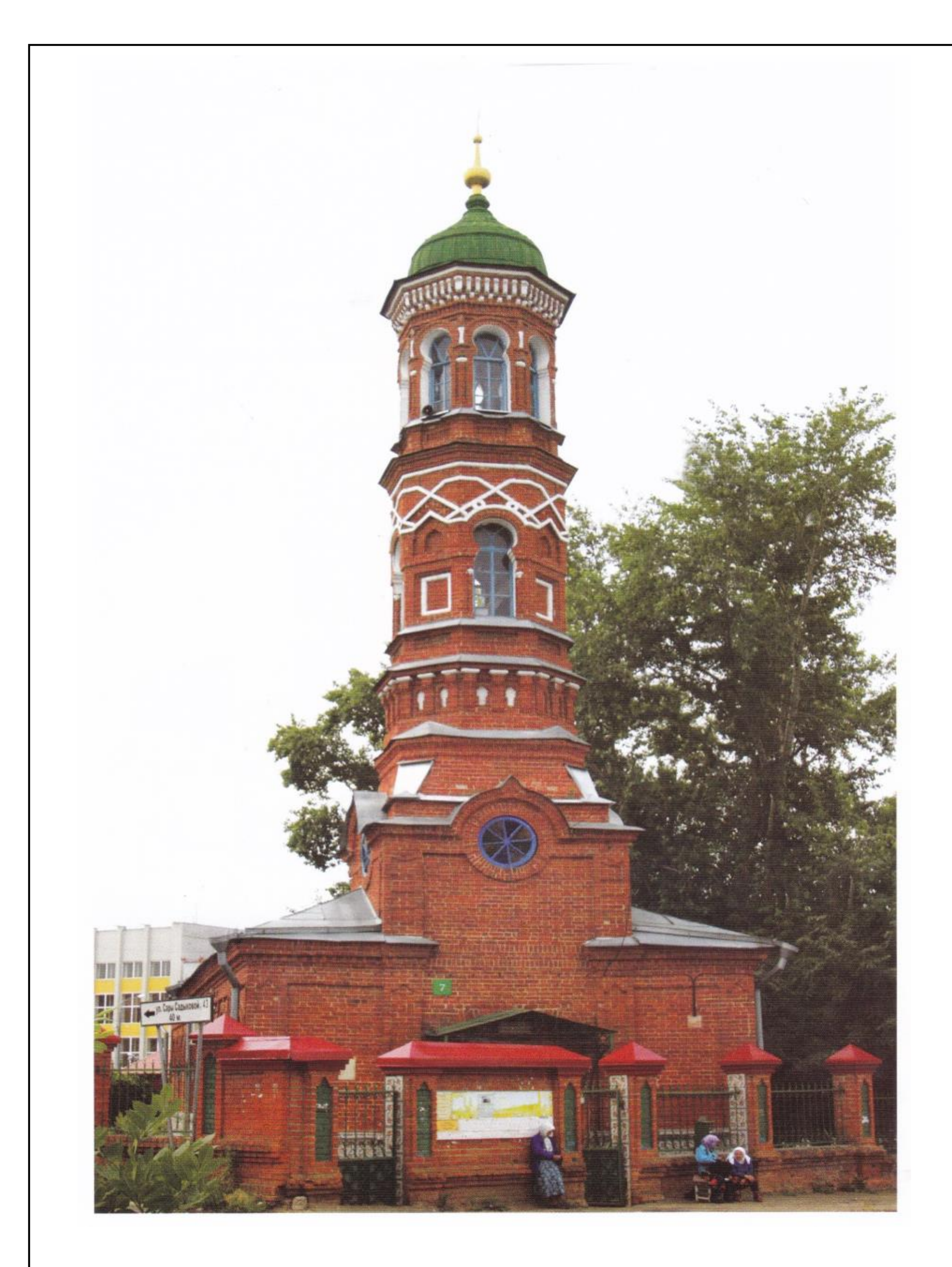
مسجد "أباناي"، قازان



مسجد "إسكا تاش"، قازان



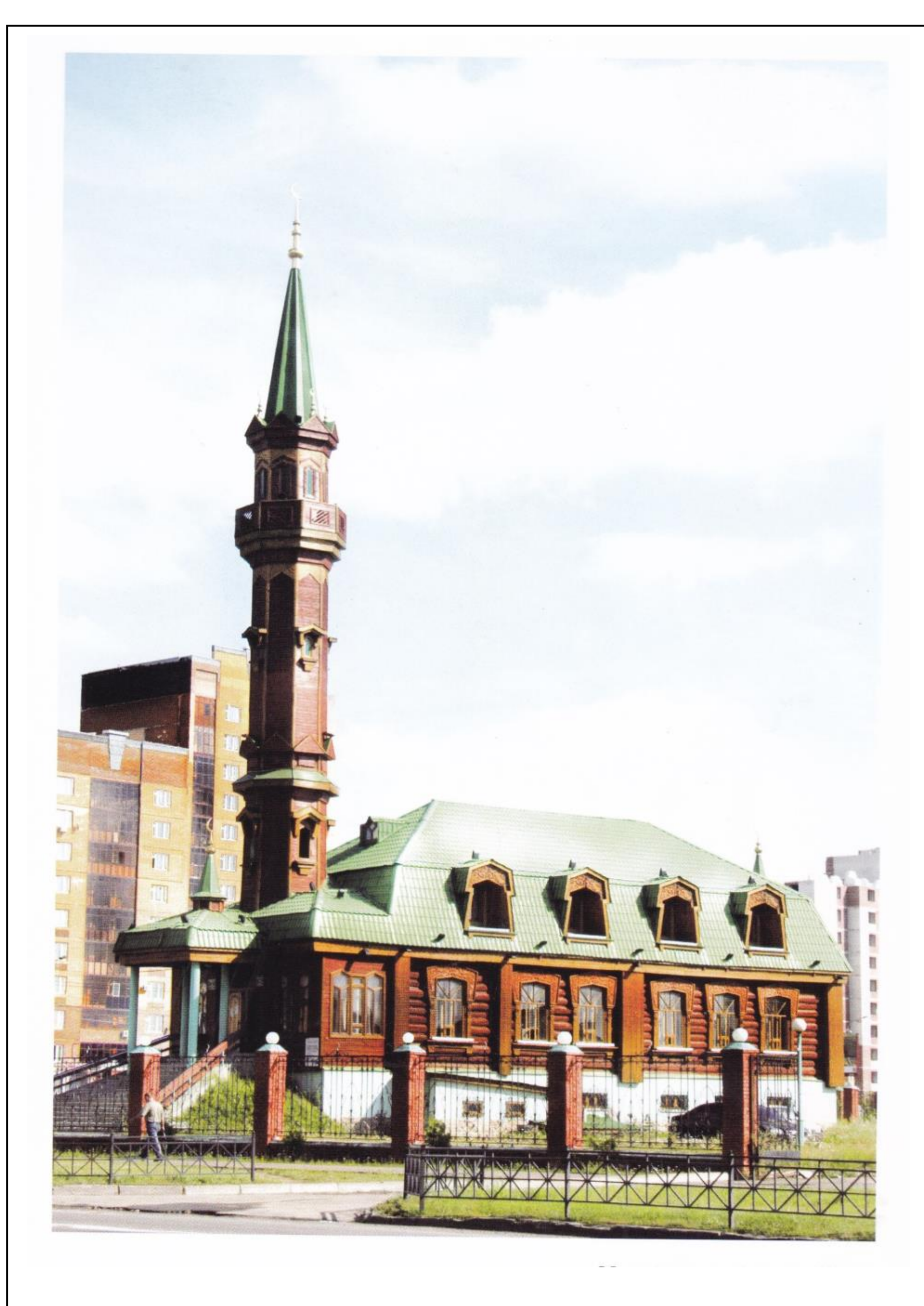
مسجد "الأعظمية" (عظيموفسكايا)، قازان



مسجد "بورناي"، قازان



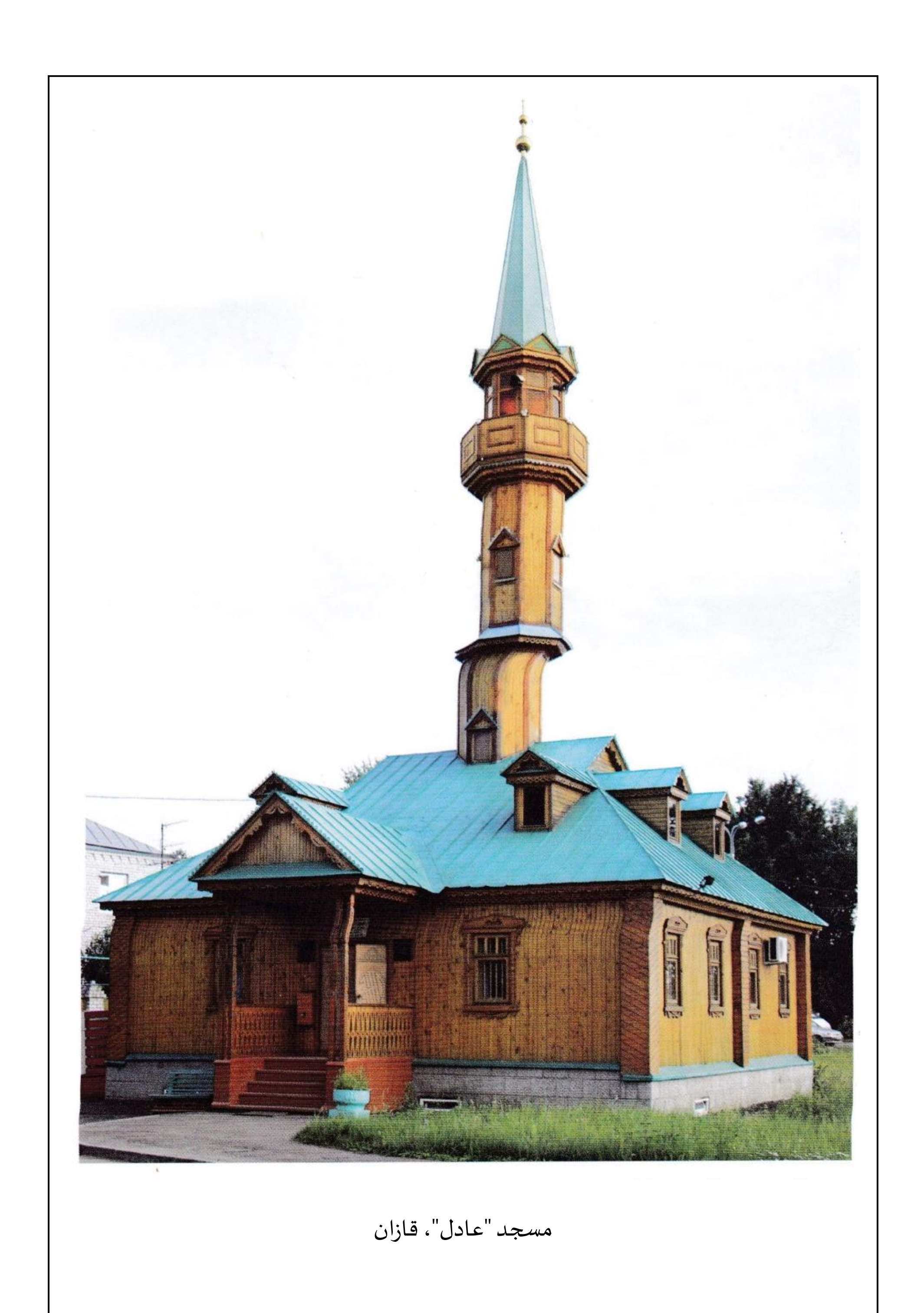
مسجد "زقابانّايا"، قازان



مسجد "قازان نوري"، قازان

مسجد "شامل، قازان





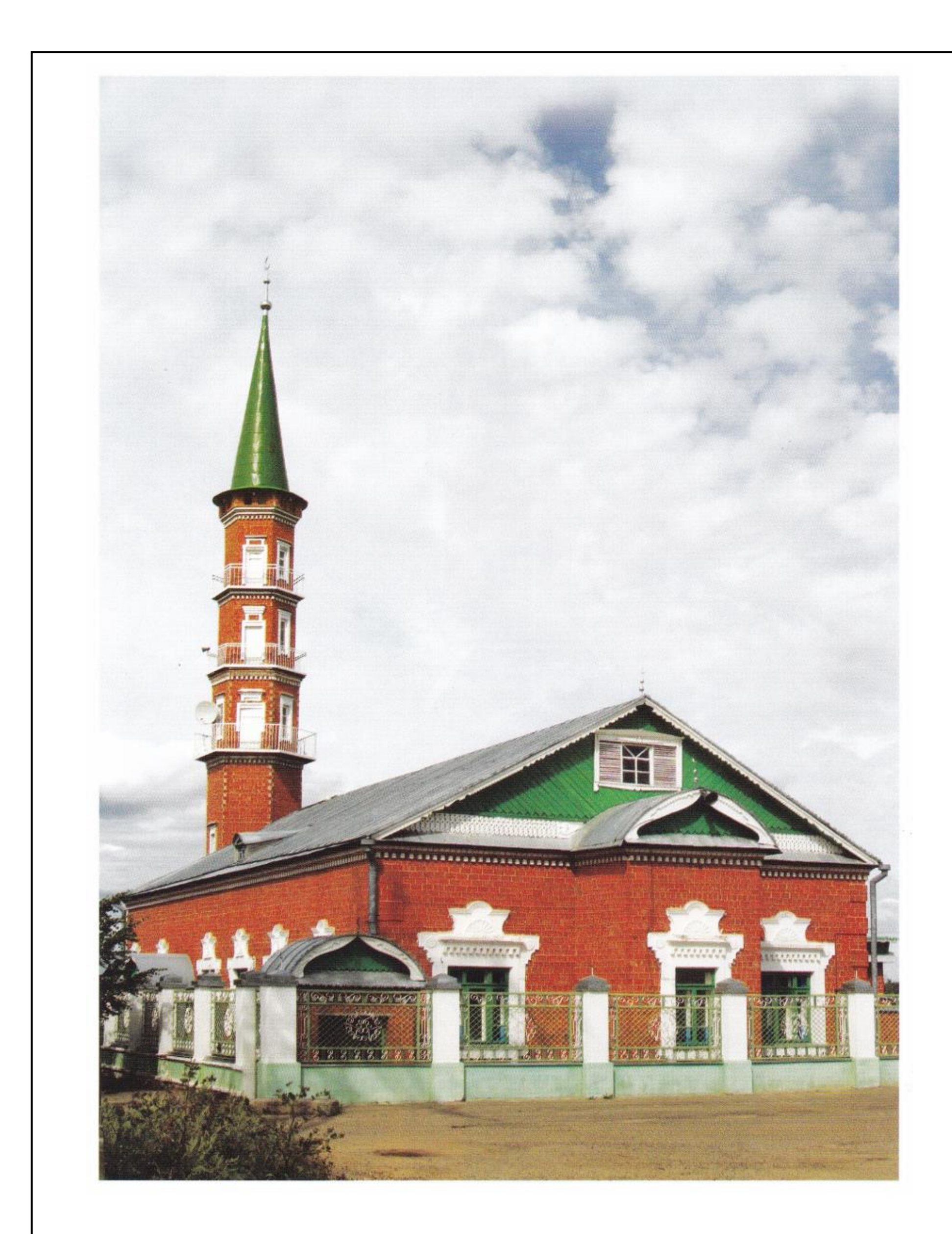
مسجد "عادل"، قازان



مسجد "بلغار"، قازان



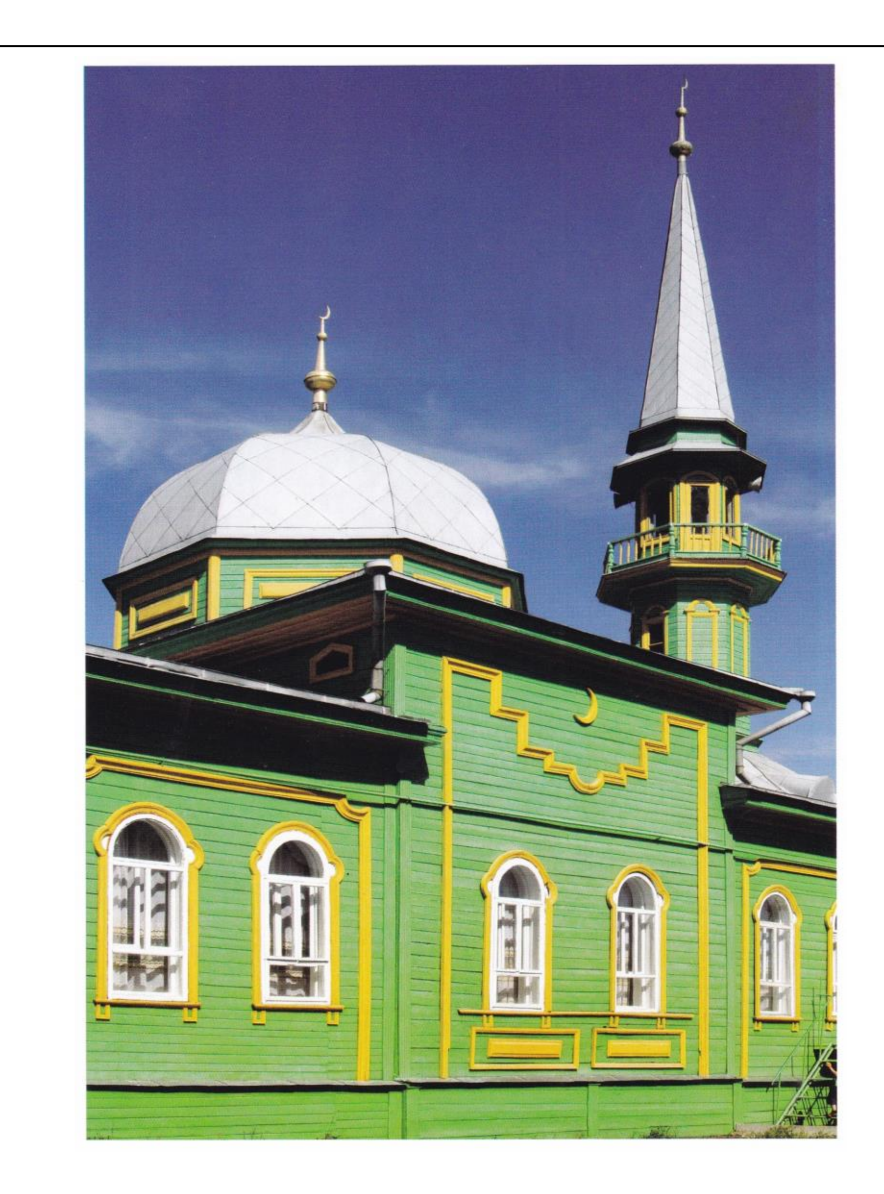
مسجد "رمضان"، قازان



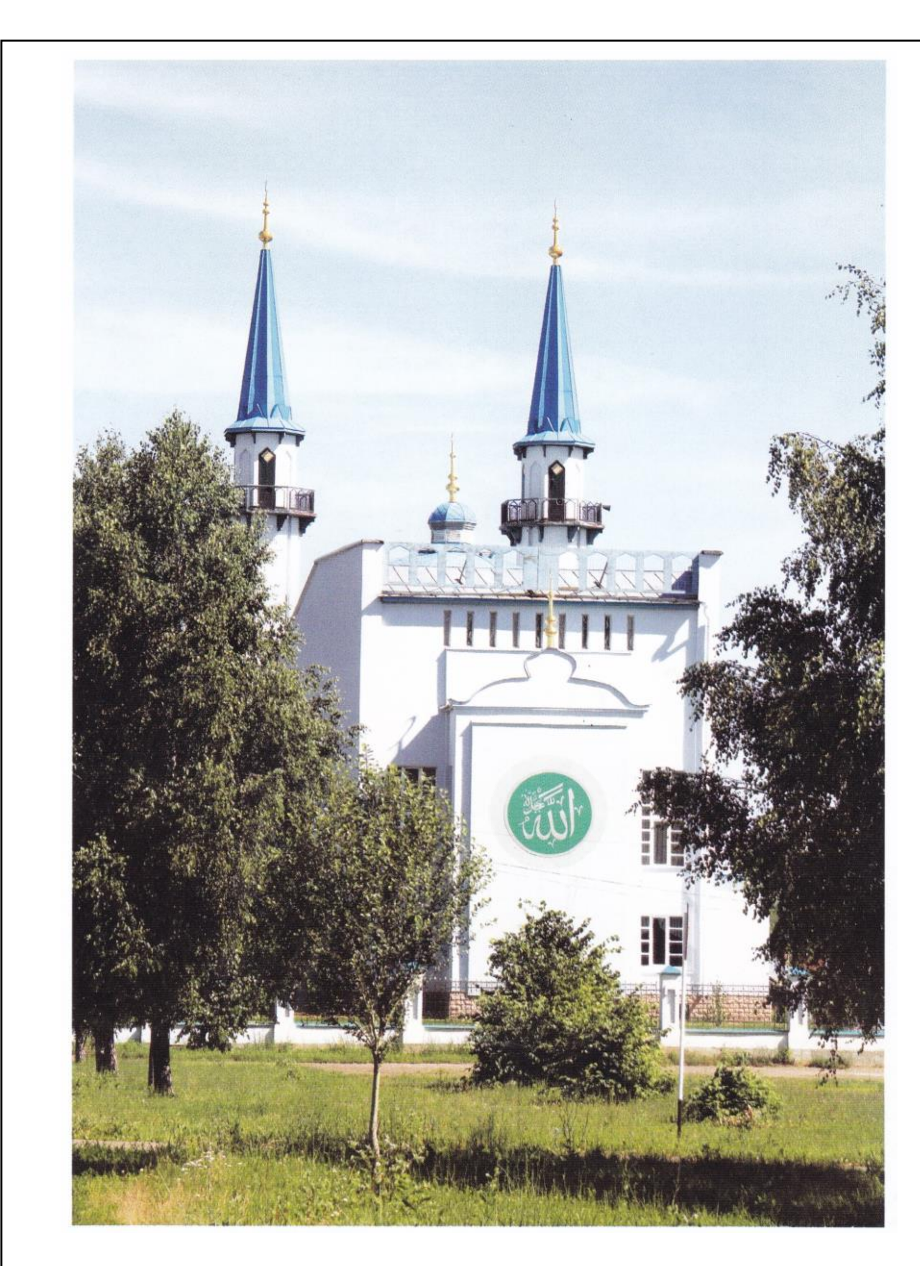
مسجد "نور الإسلام"، قازان



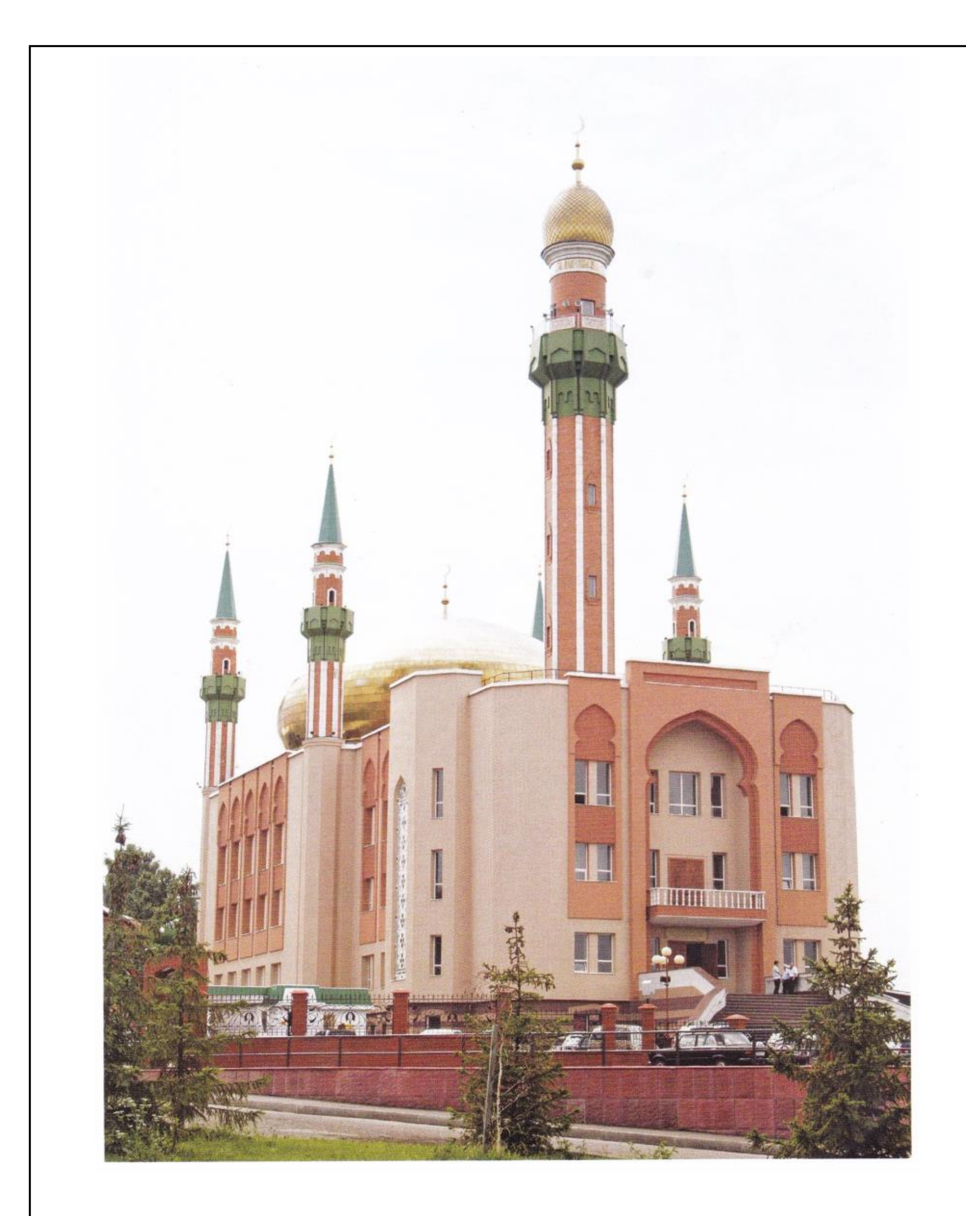
مسجد "الإسلام"، قازان



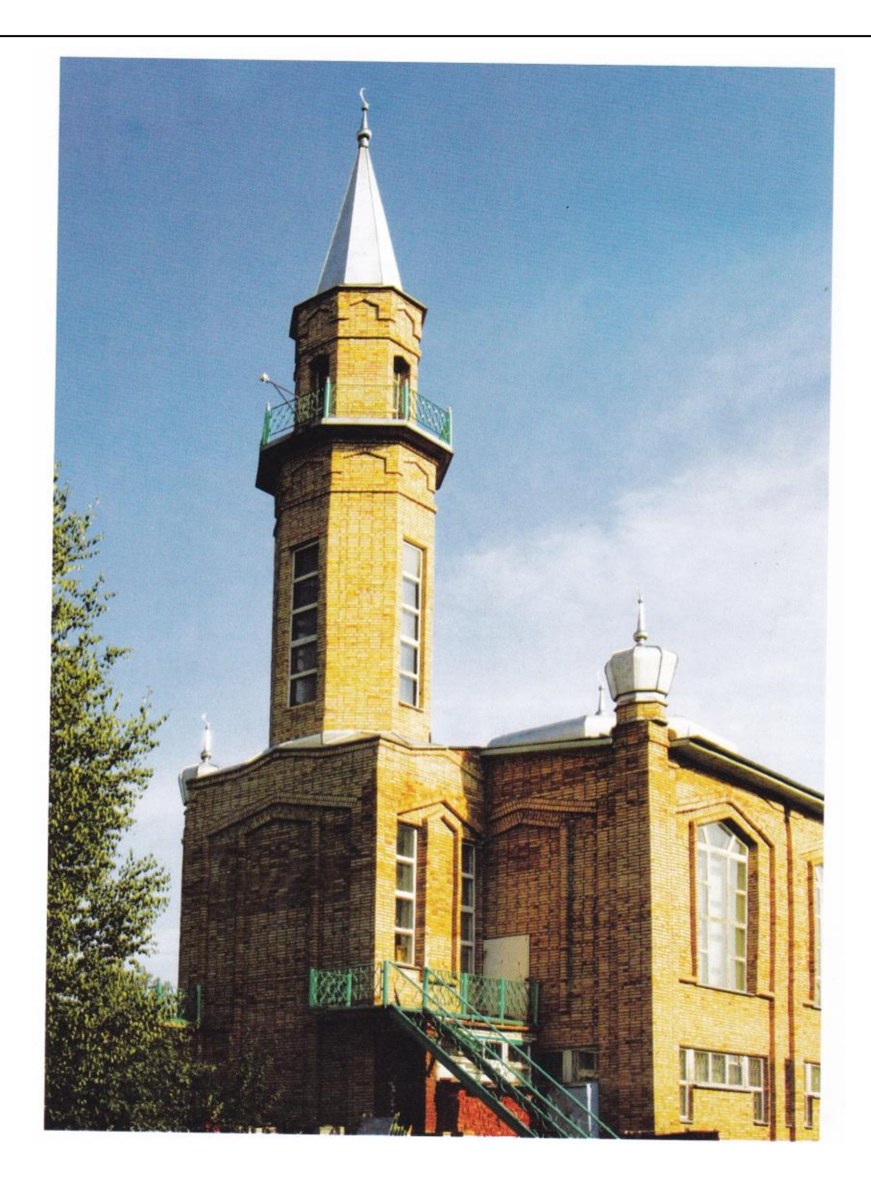
الجامع الأول بمدينة تشيستوبول



المسجد المعاصر بمدينة تشيستوبول



المسجد الجامع بمدينة ألميتييفسق



الجامع بمدينة زائنسك



الجامع بمدينة بوغولما



مسجد "التوبة"، مدينة نابيريجنيا تشيلني



المسجد الجامع بمدينة نيجنيقامسق



مسجد مدينة أرسك



الجامع ذو المئذنة الكبيرة بمدينة "بلغار"



احتفالات إسلامية قرب المسجد ذي المئذنة الكبيرة في مدينة "بلغار"





الصورتان من افتتاح مسجد في منطقة متحف ومتنزه "قازان العتيقة" عام ٢٠٠٨



المعسكر الصيفي "على طريق الرسول"، مدينة تشيستوبول، مجموعة الفتيات، عام ٢٠٠٨



المعسكر الصيفي "على طريق الرسول"، مدينة تشيستوبول، مجموعة البنين، عام ٢٠٠٨



مسجد "بلغار"، قازان



مؤلف الكتاب رفيق محمدشين (رئيس الجامعة الروسية الإسلامية في قازان)
يهدي الكتاب للمستشار الثقافي ورئيس البعثة التعليمية
عاطف معتمد عبد الحميد
(قازان – ٢٣ يونيه ٢٠١٦)